محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

منهج ورسالة - بحث وتحقيق

الجزء العشرون

تأليـــف:
فضيلة الشيخ / محمد الصادق ابراهيم عرجون
عميد كلية أصول الدين بجامعة الأزهر سابقًا

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهر

مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
تأسست عام ١٣٤٩ هـ - ١٩٣١م

غزوات النبي ﷺ وبعوثه وسراياه
تحقيق الروايات في ذلك

علـى هذا الأسـاس الذي تقدم نسـتعرض من غـزوات النبي ﷺ ما يمثـل المنهج التطبيقي فـي توجيه المجتمع المسـلم في حياته النضاليّة بالجهاد في سـبيل الله لإعلاء كلمته، باعتبار الجهاد دعامة من أجلّ وأعظم وأقوى دعائم بناء المجتمع المسـلم، وهذه الدعامة تعتمـد على وحـدة المؤاخـاة التكافلية بيـن أفـراد وجماعات هذا المجتمع، دون أن نقصد إلى استيعاب جميع الغزوات، لأن روايات هـذه الغـزوات فـي كتب المغـازي والسـير كافية في إعطـاء صورة واضحة عن أسبابها، وما وقع فيها من أحداث، وما انتهت إليه.

ولكنا نقصـد هنا إلى تصوير المنهج النبـوي التربوي العملي في سـلوك المجتمـع تصويرًا يبرز قوة وحدة المؤاخاة في مسـيرة الدعوة إلى الله دفاعًا عن الحق الإلهي الذي كان وما يزال هو هدف الدعوة الذي لا هدف لها سواه.

وأهل السـير والمغازي يطلقون على كل جيش قاده رسـول الله ﷺ بنفسه الكريمة، وخرج به داعيًا إلى الله، مبلِّغًا رسالاته، مثبتًا قوائم التوحيد، مقوِّضًا للشـرك والوثنية غزوة، سـواء وقع قتال أم لم يقع، ويطلقون على ما أرسل ﷺ على قيادته بعض أصحابه بعثًا أو سرية.

وهــذا اصطلاح أغلبي، لأن بعض الغــزوات، وأعظمها وأهمها كبــدر الكبرى، وأحد والخندق لم يخرج فيها رســول الله ﷺ إلى الكفار في بلادهم ابتداء، وإنما كان الكفار هم القادمين بجيوشهم إلى بلد رســول الله ﷺ لمحاربته، ولأن بعض الغزوات كان داخليًا في المدينــة وأطرافها، كغزوات اليهود: بنــي قينقاع، والنضير، وقريظة.

اختلافهم في عدد غزواته ﷺ:

وقد اختلف العلماء من المحدِّثين وأهل الســيِّر ممّن يُعْنون بهذا الشأن في عدد مغازيه ﷺ وبعوثه وسراياه اختلافًا عريض الأطراف، متباعــد الملتقى، ممّــا حمل بعض أهل العلم علــى محاولة التوفيق بين هذه الروايات المختلفة فقارب وأبعد مع التعسف في التأويل.

عرض وتحقيق لروايات عدد الغزوات والبعوث والسرايا:

والــذي اســتفاض عنــد أئمــة هذا الشــأن فــي عــدّ مغازيه ﷺ واجتمعت عليه كلمة أشــهر من ألّف وجمع في المغازي والسِّــير أنهــا ســبع وعشــرون غــزاة، كما ذكره موســى بــن عُقبــة، وابن إســحاق، والواقدي، وابن سعد، وغيرهم من المتقدِّمين، وخالف ابن إسحاق الجماعة – وكان معهم- في أحد قوليه، فقال في رواية البكّائي: إنها كانت ستًا وعشرين، وجنح إلى هذا القول جازمًا به أبو عمر بن عبد البرِّ في كلامه عن شــيء من حياة رســول الله ﷺ في صدر كتابه (الاستيعاب) وقال: وهذا أكثر ما قيل في ذلك.

وقد حاول السهيلي في (الروض) التوفيق بين قولي ابن إسحاق، قوله مع الجماعة، وقوله منفردًا عنهم، فقال: وإنما جاء الاختلاف لأن غزوة خيبر اتصلت بغزوة وادي القرى، فجعلهما ابن إسحاق في قوله الذي انفرد به عن الجماعة غزوة واحدة.

وقيل: إنها خمس وعشرون غزاة، وفي قول سعيد بن المسيب الذي رواه عنه عبد الرزاق بسند صحيح أنها أربع وعشرون غزاة، وعند أبي يعلى بإسناد صحيح -أيضًا- أنها إحدى وعشرون غزاة، وهو مروي عن جابر، وروى الشيخان البخاري ومسلم، وأخرجه الترمذي عن زيد بن أرقم أنها تسع عشرة غزاة، قال أبو عمر بن عبد البر، وأحمد في المسند عن وكيع عن أبيه وإسرائيل عن أبي إسحاق قال: سألت زيد بن أرقم: كم غزا رسول الله ﷺ؟ قال: تسع عشرة غزاة، وغزوت معه سبع عشرة غزوة، وسبقني بغزوتين.

وهذا اختلاف متباعد، وقد حاول الزرقاني تبعًا للسهيلي التوفيق بين هذه الروايات، فقال: ويمكن الجمع على نحو ما قال السهيلي، بأن من عدّها دون سبع وعشرين نظر إلى شدة قرب بعض الغزوات من غيره، فجمع بين غزوتين وعدَّهما واحدة، فضمّ للأبواء -وهي وَدَّان- بواطًا لقربهما جدًا، إذ الأبواء كانت في صفر، وبواطًا كانت في ربيع الأول، وضم حمراء الأسد لأُحد لكونها صبيحتها، وقريظة للخندق، لكونها ناشئة عنها، وتلتها، وضم وادي القرى لخيبر لوقوعها في رجوعه ﷺ من خيبر، قبل

دخولـه المدينـة، والطائف لحنيـن، لانصرافه منهـا إليها، فبهذا تصير اثنتين وعشرين.

قال الزرقاني: وإلى هذا أشـار الحافظ بن حجر، فقال بعد نقل كلام السـهيلي: وقول جابر: إحدى وعشـرين فلعل الستة الزائدة مـن هذا القبيل، وأما من قال: تسـع عشـرة، فلعله أسـقط الأبواء وبواطًـا، وكأن ذلك خفي عليه لصغره -يعنـي الحافظُ بذلك زيدَ بن أرقم. وحديثه في الصحيحين، لا يحتمل هذا التشـكيك؛ لأنه سئل: كم غزا رسول الله ﷺ، فأجاب جازمًا أنه ﷺ غزا تسع عشرة غزاة، غزوت معه سـبع عشرة وسـبقني بغزاتين، فلو كان زيد بن أرقم -رضي الله عنه- خفي عليه شيء من غزواته ﷺ لصغره لكان جوابـه للسـائل غير متلاق مع السـؤال، ولكان الجواب السـديد أن يقول: أدركت من غزواته تسـع عشـرة غزوة، سـبقني باثنتين وشـهدت معه سبع عشـرة غزاة. ثم قال ابن حجر: ويؤيد ما قلته ما وقع عند مسـلم بلفظ: «قلت: مـا أول غزوة غزاها؟ قال: ذات العشير أو العشيرة». والعشير هي الثالثة.

وليـس فيمـا ذكر تأييـد لما قاله، لأن السـؤال هنـاك كان عن العـدد، وهـو هنا عن الأوليـة، فأجاب هنا بما علـم دون أن يكون قد خفي عليه شيء، وأجاب هناك عن الأولية باعتبار الأهمية، لأن العشيرة كانت أهم ممّا سبقها من الأبواء وبواط، وهذا ما لا ينبغي الاختلاف فيه.

الاختلاف في عدد الغزوات التي قاتل فيها ﷺ:

قال القسطلاني في (المواهب) تبعًا لابن سعد في الطبقات: وقاتل ﷺ في تسع منها بنفسه -وهذا اللفظ: أي قوله «بنفسه» لم يذكره ابن سعد- وأنكر ذلك ابن تيمية، فقال لا يُعلم أنه ﷺ قاتل في غزاة إلا في أحد، ولم يَقْتل أحدًا إلا أبيّ بن خَلَف فيها، فلا يفهم من قولهم: قاتل في كذا، أنه بنفسه كما فهمه بعض الطلبة ممن لا اطلاع لهم على أحواله ﷺ.

واعترض الزرقاني على قول القسطلاني «بنفسه» في قوله: قاتل في تسع منها بنفسه فقال: ففي قوله «بنفسه» شيء، وفي هذا الاعتراض تأييد لإنكار ابن تيمية إنه ﷺ قاتل في تسع من غزواته بنفسه، وأنه ﷺ لم يقاتل بنفسه في غير غزوة أحد التي قَتَلَ فيها أبي بن خلف، وأجاب الزرقاني عن اعتراضه فقال: وأجيب بأن المراد قتال أصحابه بحضوره، فنُسب إليه لكونه سببًا في قتالهم، ولم يقع في باقي الغزوات قتال منه ولا منهم، ومعنى هذا الجواب أن غزواته ﷺ بعضها وقع فيها قتال بإذنه وأمره، فقاتل فيها أصحابه أعداءهم، وباشر ﷺ بنفسه الكريمة القتال في واحدة منها هي غزوة أحد التي قتل فيها أبيّ بن خلف، وبعضها لم يقع فيها قتال قط، لا منه ﷺ ولا من أصحابه، وليس مقصود من قال إنه قاتل أنه باشر القتال بنفسه، ويدل لهذا عبارة ابن سعد في الطبقات إذ لم يذكر فيها لفظ «بنفسه»، فالاعتراض وارد على صاحب المواهب، ويدفعه جواب الزرقاني بالحمل على ما قلنا.

وقد ذكر الزرقاني اعتراضًا على كلام ابن تيمية، نسبه لصاحب (النــور) فقال: قال في النور: قد يَرُدّ على ابن تيمية حديثُ: «كنا إذا لقينــا كتيبة أو جيشًــا أول من يضرب النبــيُّ ﷺ» قال صاحب النــور: ويمكــن تأويل هذا الحديث، فيســلم كلام ابــن تيمية من الاعتــراض، ولعل مراده حمل الحديث علــى أنه ﷺ أول من يأمر ببــدء القتــال؛ لأنــه القائد الأعظم، وهــذا كما وقع فــي غزوة بدر وغيرها من أمره أصحابه ألّا يقاتلوا حتى يأذن لهم.

ثم ذكر القســطلاني تبعًا لابن سعد الغزوات التسع التي قال إن النبي ﷺ قاتل فيها بنفســه، بأســمائها التي ذكرها أهل المغازي والسِّــير فقــال يُعَدَّدُهــا: بــدر، وأحــد، والمريســيع، والخندق، وقريظة، وخيبر، وفتح مكة، وحنين، والطائف. قال ابن سعد بعد ذكرها: فهذا ما اجتمع لنا عليه، وقد وصف بدرًا بأنها بدر القتال، احتــرازًا من بدر الأولى، وهي غزوة سَــفْوان التــي خرج فيها النبي ﷺ بعد العســيرة بنحو عشــر ليال، يطلب كُرْزَ بن جابر الفِهْري الذي أغار على سَــرْح المدينة فاستاقه وهرب به، ولكن النبي ﷺ لم يدركه.

وحكــى الزرقاني عن الحافظ في الفتح قولــه: وقال ابن عقبة: قاتــل في ثمــان، وأهمل عدّ قريظة، لأنه ضمهــا للخندق، لكونها إثرهــا، وأفردها غيره لوقوعها مفردة بعــد هزيمة الأحزاب، وهي الخنــدق، وكذا وقــع لغيره عــدّ الطائف وحنين واحــدة، لكونها

فــي أثرها، قال الزرقاني: هكــذا في الفتح، وكأن هذا كالتبري من عُهدة تحمُّل هذا التعسف في التأويل.

وإهدار بعض غزواته ﷺ، لا سيما كبرياتهن المهمّات بأحداثها وأسـباب وقوعها، وما كان فيها من تشـريع وأحكام في العبادات وغيرهـا مثل غـزوة قريظة التـي ضُمّت إلى الخنـدق، وقريظة قد وقـع فيهـا من الحـوادث ما لم يقع فـي غيرها، قال ابـن القيم في (الهدي): وأما قريظةُ فكانت أشدَّ اليهود عداوة لرسول الله ﷺ، وأغلظها كفرًا، ولذلك جرى عليهم ما لم يجرِ على غيرهم.

حاصرهـم النبي ﷺ خمسًـا وعشـرين ليلة، وكان لها سـبب خـاص لم يكـن لغيرها، لأنهـم خانوا الله ورسـوله ونقضـوا عهدَ صُلْحِهـم معه ﷺ إذ جاءهـم اللعين حيي بن أخطـب في ديارهم، فقـال لسـيِّدهم كعب بن أسـد، وكان كعب هـذا صاحب عهدهم الناطـق بكلمتهـم: قد جئتكم بعـزِّ الدهر، جئتكـم بقريش على سادتها، وغطفان على قادتها، وأنتم أهل الشوكة والسلاح، فهلمّ حتى نناجز محمدًا ونفرغ منه، فقال سـيّد قريظة وصاحب عقدها كعب بن أسـد: لقـد جئتني بذلِّ الدهر، جئتني بسـحاب قد أراق مـاءه، فهـو يرعد ويبـرق، فلم يزل حُيَـيّ بن أخطب يفْتِـلُ له في الذروة والغـارب يخادعه[1]، ويعده ويمنِّيه حتى أجابه بشـرط أن يدخـل معه حصنه، يصيبه ما أصابهم، ففعل حيي ذلك ودخل معه

(١) مثل يقال للرجل لا يزال يخدع صاحبه حتى يظفر منه بما يريد. (المجلة)

في حصنه، ونقضوا عهد رسول الله ﷺ وأظهروا سبَّه، فبلغ رسولَ الله ﷺ خبرُهم فأرسل يستعلم الأمر، فوجدهم قد نقضوا العهد، فكبّر ﷺ وقال: «أبشروا يا معاشر المسلمين».

فلما انصرف ﷺ إلى المدينة من الخندق: فلم يكن إلا أن وضع سلاحه فجاءه جبريل فقال: وضعت السلاح؟ فإن الملائكة لم تضع أسلحتها، فانهض بمن معك إلى بني قريظة، فإني سائر معك أزلزل بهم حصونهم، وأقذف في قلوبهم الرعب، فسار جبريل بموكبه من الملائكة ورسول الله ﷺ على أثره في موكبه من المهاجرين والأنصار، وحاصرهم خمسًا وعشرين ليلة حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ.

فكيف تُهْمَل هذه الغزاة في عدّ غزوات رسول الله ﷺ وتضاف إلى غيرها مما لم يجر فيه من الأحداث العظام مثل ما جرى فيها، ولو لم يكن لها إلا ما وقع من الصحابة فيها من اجتهاد في صلاة العصر لقول النبي ﷺ: «لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة» [أخرجه البخاري برقم ٤١١٧، ومسلم برقم ١٧٦٩ بألفاظ مختلفة] فصلاها بعضهم لأول وقتها وهم في الطريق إلى بني قريظة، وتأوَّلوا كلام النبي ﷺ على طلب السرعة والاهتمام بالخروج، وأخَّرها بعضُهم حتى وصلوا إلى بني قريظة فصلَّوها بعد عشاء الآخرة، أخذًا بظاهر الحديث، ولم يعنِّف النبي ﷺ أيًا من الطائفتين -لكفاها[٢] فضلًا في إفرادها وعدِّها غزوة مستقلة.

(٢) هذا جواب الشرط الموجود في السطر الثاني من الفقرة(ولم يكن...).

كيـف وفيها قضى رسـول الله ﷺ على أخبـث طوائف اليهود حقدًا وحسـدًا وأفجرهم كفـرًا وبغيًا، وبحسـبها أن قُتِلَ فيها أبو جهلهم، الموازن لأبي جهل قريش، حيي بن أخطب فرعون يهود.

فغزوة بني قريظة كانت عزًا للمسلمين ونصرًا لرسول الله ﷺ ولدعوتـه ورسـالته، ووقع فيها من عظام الأحـداث ما لم يقع مثله ولا قريـب منه في الخندق على جلالـة قدرها وخطرها، وهي التي أضيفت لها وجُعلت تابعة لها.

وغـزوة الخنـدق كانت غـزوة إعجاز، تنـزّل النصـر فيها من السماء بعد أن زُلزل فيها المسلمون زلزالًا شديدًا، وكانت قريظةُ غـزوةَ كفاح وجـلاد وجهاد بالحصار الشـديد الـذي أرغم اليهود على النزول على حكم المسلمين، وبوئ فيها الإيمان مكانًا عليًا وقضـي فيها على عصبـة الحقد والغـدر والخيانة ونقـض العهود والمواثيق.

ومثل ذلـك يقال في كبريات الغزوات التي قيل إن بعضها ضُمّ إلـى بعـض كحُنين والطائف، وهمـا من أعظم وأخطـر الغزوات، ولـكل غزوة منهما سـبب يخالف سـبب الأخـرى، ووقع في كل غزوة منهما من الأحداث والوقائع الكبرى ما لم يقع في الأخرى.

فإهـدار حـوادث التاريخ، ولا سـيما في مشـرق الإسـلام على عهـد النبي ﷺ لا يجوز قط، ولا ينبغي لباحث أن يقصده من أجل اختصار الأحداث والوقائع.

الاختلاف في السرايا والبعوث كالاختلاف في الغزوات:

وكما وقع الاختلاف المتباعد في الغزوات وعددها وتسمية ما وقع فيها القتال منه ﷺ، وقع هذا الاختلاف في البعوث والسرايا، فابن عبد البر يذكر في ديباجة الاستيعاب أنها خمس وثلاثون بَعْثًا وسرية، وابن إسحاق يذكر من رواية البكّائي أنها كانت ثمانيًا وثلاثين، وابن حجر يذكر عن ابن إسحاق أنها كانت ستًا وثلاثين.

وعند الواقدي أنها كانت ثمانيًا وأربعين، وذهب ابن الجوزي أنها كانت ستًا وخمسين، ورفعها المسعودي إلى ستين بعثًا وسرية، وزاد عليه محمد بن نصر المروزي فجعلها سبعين، وبالغ الحاكم في الإكليل فرفعها إلى أكثر من مئة بعث وسرية، قال العراقي: ولم أره لغيره، ووقف مغلطاي بمجموع الغزوات والبعوث والسرايا عند المئة، فقال: إن مجموع الغزوات والسرايا مئة، وزعم ابن حجر أن هذا مراد الحاكم فيما ذهب إليه في الإكليل وذلك بضم المغازي إلى البعوث والسرايا، قال الزرقاني: وهو كما قال.

وهذا اختلاف غريب متباعد، وهو أشبه بالاختلاف في عدد الأيام التي أقامها رسول الله ﷺ بقباء مقدمه المدينة، وأشبه بالاختلاف في مدة إقامته ﷺ بمكة بعد البعثة، وأشبه بالاختلاف في قدر سنيِّ عمره المبارك، وسنه التي توفي بعد أن بلغها، إلى كثير من نحو ذلك، مما يوجب على أهل العلم من الباحثين في

مطلع التاريخ الإسلامي أن يحاولوا وضع منهج للبحث يحقق القضايا التي اختلفت فيها الروايات لتوضع كل قضية في موضعها الصحيح من مسيرة هذا التاريخ.

الجهاد قوة تنشر الحق الإلهي وتحميه وتدافع عنه:

وقد استفاض متواترًا أن منهج تربية المجتمع المسلم الذي وضعه رسول الله ﷺ -على أساس المؤاخاة الفردية- أولًا- حين كان المجتمع المسلم قليل العدد محصور الرقعة، تلك المؤاخاة التي قامت على أساس التآخي في الله، أخوين، أخوين، في ظل ظليل من وارف الحب الإيماني، ووحدة الترافق والتواسي بين أفراد المجتمع المسلم التي صيّرها الحب في الله إيثارًا، ثم على أساس المؤاخاة الجماعية ثانيًا- بعد أن كثر عدد المجتمع المسلم، وانحسر عنه حصار الرقعة، هذه المؤاخاة التي قامت على التكافل الاجتماعي لتكون دستورًا يضبط علاقات المجتمع المسلم الاجتماعية ويوجهه في طريق تحركاته الإيجابية لنشر الدعوة إلى الله، وإعلاء كلمته وتبليغ رسالاته -اتخذ من الجهاد في سبيل الله دعامة يستند عليها بناء المجتمع المسلم في تركيبه الاجتماعي الذي يمضي به في مستقبل حياته قويًا متماسكًا، وطيد الحركة ثابت القدم راسخ اليقين، لا ترعبه القوى المادية الوثنية، مهما تعاظمت وسائلها المدمِّرة، ولا تفزعه تألبات تلك القوى في عتوها وفجور كفرها وخبيث إلحادها، لأن منهج هذا المجتمع المسلم الذي وضعه له رسول الله ﷺ وربّاه عليه جعله

يرى الموت استشهادًا في سبيل إقامة منائر الحق الإلهي عن طريق السالكين في بيداء الحياة أثقل ميزانًا من الحياة على أهبة الجهاد لتحقيق أهدافه التي جعلته العناية الإلهية أمينًا عليها، يعيش لها، مؤمنًا بها إيمانًا فدائيًا يريه موعود الله كأنه بين يديه حقيقة ماثلة.

سمع عُمير بن الحمام رسول الله ﷺ يقول، وقد التحم الجمعان في بدر: «والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة» فقال عمير بن الحمام وفي يده تمرات يأكلهن: بخ بخ، أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟ ثم قذف التمرات من يده، وأخذ سيفه وقاتل القوم حتى قتل(٣).

الجهاد في منهج التربية النبوية وسيلة لا غاية:

الجهاد في منهج النبي ﷺ الذي ربى عليه مجتمعه المسلم وسيلة لا غاية، وطريق إلى هدف إذا وصل إليه المجتمع المسلم وقف عنده يحميه ويذود عنه، لا يجاوزه ولا يتعدّاه، لأن الجهاد في هذا المنهج النبوي بأنواعه الحجاجية والقتالية إنما يستهدف هداية أبناء الإنسانية أينما كانوا أو كيفما كانوا، على كلمة سواء، هي كلمة التوحيد التي تجعل من المجتمع المسلم كله على اختلاف أوطانه وأجناسه وألوانه ولغاته، ومؤثراته، وتأثراته البيئيّة وحدة إيمانية متساوية الحقوق والواجبات.

(٣) شرح الزرقاني على الموطأ، باب الترغيب في الجهاد ٣/٦٨. (المجلة)

ومــن هنــا كان على هذا المجتمع المســلم ألّا ينفــر إلى جهاد القتــال إلا بعد أن يســتنفد كل ما يملك من طاقــات في قوة البيان والحجــاج العقلــي، والرغائب الوجدانية والدوافــع العاطفية التي تجتذب النفوس إلى الانضواء تحت لواء المؤاخاة التكافلية، وهي أســاس بناء المجتمع المسلم، وهي الوســيلة العظمى في المنهج النبوي لتجميع الإنســانية في وحدة إيمانيــة متحررة من العبودية المادية المفرقة لوحدة الإنسانية في نشأتها.

وإلّا بعــد أن يســتنفد أعظم ما يملك من طاقــات روحية يصب في قالبها منهج دعوته وهدايته، لتكون صورة لنقاء فطرته وصفاء مقاصــده، وإخلاص مؤاخاته، ليســتطيع أن ينهــض بعبء القيادة الإنسانية إلى آفاق متجددة من صور الحضارة الفكرية والاجتماعية، ليقــاوم عرامة الإلحاد المادي الذي جعل من الإنســانية أشــلاء من الأشــباح الجامدة، وأشــتاتًا متنافرة الوسائل والأهداف والمقاصد في الحياة، لا تعيش إلا لشهواتها الدنيا.

والمجتمع المسلم نشأ مجتمعًا متكافلًا في ظل وحدة المؤاخاة الفرديــة والجماعية، وهو بمقتضــى هذه الوحدة، وبما آتاه الله في منهجه التربوي الســلوكي من خصائص القيادة الإنســانية يجعله خير أمة أخرجت للناس، وكُلِّف أن ينهض بالدعوة إلى نشــر الحقِّ الإلهــي إيجابًــا وســلبًا، إيجابًا بإقامــة معالم التوحيــد، وإخلاص العبوديــة لله وحــده، والتحــرر المطلق من عبوديــة المخلوقين في

شتى صورها واختلاف أشكالها ومصادرها ومواردها الوثنية الملحدة، وسلبًا بالنهوض المشمِّر عن قوة الإيمان إلى تقويض دعائم الشرك العتيّ والوثنية البليدة المتحجرة اللذين استعبد بهما الطغاةُ الناسَ من أجل لقمة العيش، وهي في منهج المجتمع المسلم حق كريم لكل حي على ظهر هذه الأرض، لكن الإلحاد المادي والوثنية الفكرية الحديثة لا تعطي هذا الحق الكريم لأحد من المستضعفين في الحياة إلّا في أطباق سوداء من الذلّة والمهانة وتمريغ الإنسانية في حمأة الوحل المذل.

فتحرير الإنسانية من ربقة هذه العبودية المادية العاتية -هو الغرض من الجهاد، حتى يعلم الناس أنهم جميعًا عباد الله الذي خلقهم وهو الذي يرزقهم وليسوا عبيدًا لسدنة الوثنية الطاغية المادية.

صور الجهاد لإعلاء كلمة الله كما رسمها المنهج النبوي:

وقد رسم المنهج النبوي في إطار الدعوة إلى الله ونشر الحق الإلهي الخطوط العريضة التي تتألف منها صورة الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الحق التي تنبع منها روافد الفضائل الإنسانية، لتسقي بنميرها أراضي القلوب المؤمنة(٤)، وتجذب إلى منازلها الأفئدة المستعدة بفطرتها لتقبل الهداية، وهي تنهمر كالغيث المتنزِّل من سماء الإيمان بالله إلهًا واحدًا، موصوفًا بكل كمال يليق بجلال ألوهيته.

(٤) نمير الماء: الماء الصافي.

وهـذا المنهـج قد جعل من الجهاد وسـيلة لبيـان الحق الإلهي بيانًا لا يدع شبهة في نفس من يريد الإيمان، وبيان أن إرساء قواعد الحق الإلهي مصدر كل خير في هذه الحياة، وبيان أن الشـرك بالله والوثنيات قديمها وحديثها مصدر كل شر وفساد في الأرض، وأن الدعوة إلى الحق الإلهي واجبة على كل فرد أو جماعة في المجتمع المسلم أينما كانت أممه وشعوبه في أوطانها من أرض الله.

وإنما جعل الإسلامُ الجهاد وسيلة إلى بيان الحق الإلهي وإقراره في القلوب والعقول، لأن الوثنيين الماديِّين أعداء كل خير وهدى، لا يتركـون الحق الإلهـي الذي هو هدف منهج المجتمع المسـلم يمشـي علـى أرض مطمئنًـا يَعْرِضُ نفسـه على النـاس وهم آمنون مطمئنـون، لأن هـؤلاء الوثنييـن الماديِّيـن يعلمـون أن هذا الحق الإلهـي هو فطرة الله التـي فطر عباده عليها، ولكـن صدأ الجهالة وفجـور الوثنية غطّى على أبصارهم وبصائرهم فضلُّوا طريقه، فإذا ذُكّروا به ورأوه في حقيقته الوضيئة المشـرقة لم يملكوا أنفسـهم أن يتوجهـوا إلى اعتناقه، وفي ذلك طامّة الطامّات وداهية الدواهي علـى حيـاة الوثنيين الماديـن، لأن ذلك يزلزل سـلطان وثنيتهم وتحكّمهـم في مصائر المسـتضعفين فـي الأرض، ويقوِّض بنيان سيطرتهم على العقول المخدوعة والقلوب الفارغة بما في أيديهم من سـراب مضلِّل، ولن يستسلموا أو يسلموا بمجرد عرض الحق الإلهي في صورته المشرقة، ولن تقنعهم بيِّناته وحججه وبراهينه، لأنهم معاندون مكابرون، ولكنهم يسهبون بكل ما لديهم من قوة

مادّيــة مدمّرة مدافعين عــن حياتهم الوثنية الفاجــرة، لا يبالون أن يسفكوا في سبيلها الدماء، ويخرِّبوا الديار، ويدمِّروا الحياة.

فكان لا بد للمجتمع المســلم وهو حامل راية الدعوة إلى الحق الإلهــي وتبليغ الرســالة من إعداد نفســه بالقوة الزاجــرة المرهبة لعــدو الله وعدوهــم، ليصــدّ بها قوى الشــرك والوثنيــة والطغيان والظلــم، ليفتح الطريق أمام دعوته إلى الله -تعالى- لإعلاء كلمته فــي الآفاق، وفي ذلك يقول دســتور المجتمــع المســلــم القرآن الكريــم: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾ (الأنفال: ٦٠).

ومن ثَــمّ يتبين أن الجهاد في منهج المجتمع المســلم وســيلة لدفع ما يعترض طريق الدعوة إلى الله وتبليغ رســالته ونشر العدل، ومقاومــة الظلم والفســاد في الأرض، ولم يكن قــط هجومًا لإكراه الناس على اعتناق الحق الإلهي، وقبول دعوته.

وللمجتمع المسلم تاريخ مع الجهاد في سبيل الدعوة إلى الله، هذه الدعوة التي جمعت أشتاتًا من الأمم والشعوب، كانت متخالفة لا تجمعهــا عقيــدة، فوحّــدت بينها بعقيــدة التوحيــد والإيمان، وربطتهــا بوشــائج المؤاخاة، فكانــوا جميعًا وحدة لهــا مقوماتها الذاتيــة، وخصائصهــا الفكريــة، وفضائلهــا الروحيــة، ونظمها

الاجتماعية، وأوضاعها السياسية وخططها الاقتصادية، وقيمها الأخلاقية، وعواملها التقدمية، واتجاهاتها العقلية، ونماذجها الحضارية، ووسائلها الخاصة لتحقيق أهدافها ومقاصدها في الحياة، وبهذه الوحدة الشاملة كانت هذه الأمم والشعوب هي المجتمع المسلم في صورته الشاملة الغامرة، ولكنها أصبحت اليوم وحدة جغرافية لا تحمل من خصائص وحدة المؤاخاة التكافلية إلا لونًا باهتًا لا يصف إلاّ انتماءها لشيء قد كان.

فإذا استطاعت هذه الأمم والشعوب المسلمة المتناثرة في أوطان الإسلام أن تستعيد بالمؤاخاة وإعداد القوة المرهبة تركيب مجتمعها المسلم على أسس المؤاخاة التكافلية، وأن تستعيد لهذا المجتمع خصائصه التي كانت له في ماضيه القوي الموحد في ظل العقيدة التوحيدية -كانت جديرة أن تستعيد زمام القيادة الإنسانية لتمضي بها في الحياة الحرة الكريمة.

وقد شرعت الدعوة إلى الله -تعالى- لتكون دستورًا لهذا المجتمع المسلم الذي يفيء إلى ظله كل من يحيا في دائرة وجود هذا المجتمع، ذلك الوجود الذي يفرض سلطانه على الحياة بروح العدل والإخاء.

وكان هذا المجتمع المسلم هو الناطق بكلمة الله، وهو المهيمن على قيم الحياة، المقيم لموازين العدل والمساواة بين كافة البشر.

ولـم يُعرف في تاريخ منهـج الدعوة إلى الله علـى يد المجتمع المسـلم -يـوم أن كان هـذا المنهـج هـو النبـراس الـذي يضيء للمجتمع المسـلم طريقه في تبليغ رسـالته ونشر هدايته- أن هذا المجتمع اتخذ من الجهاد في سبيل الله وسيلة قهر جبروتية، تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين بدعوته، مصدِّقين لرسالته، ولكن هذا المنهج كان يتخذ من الجهاد قوة دفاعية متحركة تهدي إلى الحق والخير، والبر والمحبة، في ظل العقيدة التوحيدية التي هي أساس الدعـوة إلى الله، وتدفع بقوتها الروحيـة والماديّة في صدر كل من يقف في طريقها ظالمًا معوّقًا سيرها، وهي ماضية في هدايتها.

وغزوات النبي ﷺ وبعوثه وسراياه، وجهاد خلفائه الراشدين، وأئمة الهدى من بعده تحمل بين طياتها الدليل القاطع على ذلك.

المنهج النبوي للجهاد في الإسلام:

روى الأئمـة: أحمد بن حنبل، ومسـلم بن الحجاج القشـيري، والترمذي، وابن ماجه أن رسول الله ﷺ كان إذا أمَّر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال لهم: «اغزوا باسـم الله في سبيل الله، وقاتلوا من كفر بالله، اغـزوا ولا تغلـوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلـوا وليدًا، وإذا لقيت عدوك من المشـركين فادعهم إلى ثلاث خصال، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم: ادعهم إلى الإِسـلام فإِن أجابوك فاقبـل منهم وكـف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار

المهاجريـن، وأخبرهـم أنهم إن فعلوا ذلك فلهـم ما للمهاجرين، وعليهم مـا على المهاجرين، فإن أبـوا أن يتحولوا عنها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم الذي يجري على المسـلمين ولا يكون لهم في الفيء والغنيمة شيء إلا أن يجاهدوا مـع المسـلمين، فإن هم أبوا فسَـلْهم الجزية، فـإن أجابوك فاقبل منهم وكفَّ عنهم، وإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم».

وهذه الوصية النبوية الثابتة عن رسـول الله ﷺ بأصحِّ الأسـانيد تـدل بأسـلوب ديباجتها على أنها كانت هي منهـج الدعوة إلى الله التي التزمها قادة الجهاد في المجتمع المسلم؛ لأنها رسمت الإطار الـذي تتجمع فيه صور الجهاد في سـبيل الله، فكانـت بذلك بيانًا لمنهج الدعوة في نظامها الذي يحقق المقصود من شرعية الجهاد الـذي جعلته هذه الوصية النبوية مراتب، لا يجوز لقادة الجهاد أن يتجاوزوا مرتبة منها فـي وضعها من الوصية النبوية إلى غيرها من المراتـب إلا إذا لـم تُقْبَـل المرتبة التي قبلها، وعجـز الإقناع أمام العناد المستكبر عن الوقوف عندها.

وأول تلك المراتب (الدعوة إلى الإسلام) وهي دعوة إلى الحق والهـدى، وإلى المؤاخـاة المتكافلة التي جعلهـا منهج المجتمع المسلم أساسًا للجهاد في سبيل الله، والإسلام إيمان وأمان، وعدل ورحمـة، وإخاء ومحبة، فمن قبله ودان به فهو أخ لكل مسـلم، له من الحقوق ما لكل مسلم، وعليه من الواجبات ما على كل مسلم في دائرة طاقته واسـتعداده الروحي والمادي، ولا تكلف نفس إلا وسعها.

فـإن لم يقبـل المدعوُّ الإسـلامَ دينًا يؤمن به ويصدق برسـالته جـاءت المرتبـة الثانية بعد البيـان الواضح والحجـة النيرة، وهي الإلـزام بخرج من المال لا يئود من يُلْزَم بـه من القادرين عليه(٥)، وهـو لا يضـرب إلا على القـادر عليه، وهـذا الخُرج سـمّاه منهج الدعـوة (جزية) ولفظها يحمـل ما في طياتها أنها جزاء في مقابل الدفاع عن دافعيها وحمايتهم ممن يدهمهم بالاعتداء عليهم، وهي فـي التقدير الاجتماعـي فرصة موادعة للنظر فـي حقيقة ما عرض على المدعوين وطولبوا بالاستجابة له من أصول الإسلام وشرائعه وآدابه، وهم على أكمل درجات الحرية الفكرية والاجتماعية.

وتاريـخ الدعوة إلـى الله حافل بالذين نظـروا فوافقوا واهتدوا، وسـارعوا مسـتجيبين لدعوة الحـق، ودخلوا في سـاحة المؤاخاة التكافلية وفي قلوبهم إيمانهم ليكونوا مع سـائر المسلمين أخوة متكافليـن، فكانوا مـن أقوى المؤمنين إيمانًـا وأزكاهم جهادًا في سـبيل الله، وذابـت الجزية فـي موجبات التكافـل الأخوي، وكثر الداخلون إلى سـاحة الإسـلام حتى تخوف بعض الـولاة في خلافة عمـر بـن عبدالعزيـز على بيـت المـال أن تُصَفّر أركانـه وتَخْوَى جوانبه من المال، فشـكوا إلى الخليفة كثرة الداخلين في الإسلام وخواء بيت المـال، فقال لهم -رضي الله عنه- كلمته المعبرة عن هدف الإسـلام في شـرعية الجهاد: إن الله -تعالـى- بعث محمدًا ﷺ هاديًا ولم يبعثه جابيًا.

(٥) آده الأمر يئودُه إذا ثَقُل عليه. (المجلة)

وهـذه الوصية النبوية التـي تصور منهج المجتمع المسـلم في الجهاد هي عينها التي أوصى بها أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- قادته: يزيد بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة حين بعث الجنود نحو الشـام، مع زيادات قليلة استدعاها تركيب المجتمع في خلافته -رضي الله عنه-، ومواطن الجهاد وبيئاته.

روى ابن عسـاكر والبيهقي عن سـعيد بن المسـيب، ورواها عنه مالـك فـي الموطأ مختصـرًا أن أبا بكر الصديق -رضـي الله عنه- لما بعث الجنود نحو الشـام أمر يزيد بن أبي سـفيان وعمرو بن العاص، وشـرحبيل بن حسـنة، فقال لهم: «أوصيكم بتقوى الله، اغـزوا في سـبيل الله، فقـاتلوا من كـفـر بالله، فـإن الله ناصرٌ دينَـه، لا تغلُّـوا، ولا تغدروا، ولا تجبنوا، ولا تعتدوا في الأرض، ولا تعصوا ما تؤمرون».

ثم ذكـر مراتب الجهاد كمـا ذكرتها الوصيـة النبوية، ثم قال أبو بكر لأمراء جيوشـه: ولا تحرِقُنَّ نخـلا، ولا تعقروا بهيمة ولا تقطعوا شـجرة ثمـر، ولا تهدمـوا بَيْعـة، ولا تقتلـوا الولدان ولا الشيوخ، ولا النساء، وستجدون قومًا حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له.

وفي هـذه الوصية الصديقية المتطابقة مع الوصية النبوية دليل علـى أن الراشـدين اتخذوا من منهج النبـي ﷺ في الجهاد منهجًا لهم، وأنهم لم يحيدوا عنه، وما وقع في الوصية الصديقية من بعض زيـادات فإنما اقتضاهـا الموقف وعظم حجم المجتمع المسـلم، واختـلاف موطـن الجهاد باختـلاف البيئة، فالنـص فيها على قوم

حبسوا أنفسهم في الصوامع، ولم يشاركوا في القتال لا بالقول ولا بالفعل، والأمر بتركهم وما حبسوا أنفسهم له إنما أوجبه ما كان في الشام من أوضاع النصرانية وقسيسيها ورُهْبَانَها، وفيه دليل على أن كل من لم يقاتل، ولم يكن أهلًا للقتال لا يُقاتل ولا يعرض له، فمن كفَّ يده عن القتال وجب على المجتمع المسلم أن يكف يده عن قتاله.

وفي هذه الوصية نهي عن الفساد في الأرض، ونهي عن الجبن، ونهي عن الاعتداء في الأرض إلى جانب ما جاء في الوصية النبوية من النهي عن الغلول والغدر لأنهما من دنايا الأخلاق، وبالجملة فهي صورة لمنهج رسول الله ﷺ في الجهاد، هذا المنهج الذي لم يستهدف من الجهاد في سبيل الله إلا الدعوة إلى الله وهداية الناس.

والوصيتان متفقتان على وضع مراتب الجهاد في مراتبها المفروضة على المجاهدين وأولها الدعوة إلى الإسلام. بالبيان والحجة، فإن لم تفد الحجة البينة في قبول الدعوة إلى الله، وغلب على المدعوين من المشركين العناد المستكبر كانت المرتبة الثانية، وهي الجزية في فرصتها الاجتماعية للنظر المتأمل في حقيقة الإسلام وفضائله، وقبح الشرك ورذائله، فإن لم تُغْنِ الجزية بفرصتها، وأبى أعداء الإسلام إلا العتو والفجور كانت التي لا شوى[٦] لها وهي المرتبة الثالثة، هي الحرب والقتال الذي يكشف عن سوأة الشرك والوثنية المادية الملحدة، القتال الذي

(٦) الشوى البرء، يقولون عن الداهية: لا شوى لها أي لا برء لها. (المجلة)

يبيــن أن المدّرعين بأقنعة الشــرك والوثنية لا يريدون الســلام في ظل الهداية الإلهية، ولا يريدون لأنفســهم التطهّر من رجس فجور الكفــر، بل لا يريدون الســلام وهــم على كفرهم فــي ظل موادعة الجزية وفرصتها الاجتماعية.

الجهاد القتالي ضرورة لحماية الدعوة إلى التوحيد:

فلــم يبق أمــام المجتمع المســلم وقــادة جهــاده إلا أن يقاتلوا مســتعينين بــالله علــى أعدائهــم الذيــن كانــوا دائمًــا يفوقونهــم عــددًا وعــدة، حتــى يحكــم الله بينهــم وبيــن هــؤلاء الأعــداء، وشــعار المجتمــع المســلم يومئذ قــول الله -تعالــى-: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ (التوبة: ٥٢).

والناظــر بعيــن التأمل في هــذه المراتب التــي وضعها المنهج النبــوي للجهــاد ومراتبه يــرى الحكمة السياســية ماثلــة في هذا المنهــج المحكــم، ويــرى معهــا أن المجتمع المســلم بمقتضى منهجــه النبوي في الجهاد لا يقصد مــن الجهاد القتالي، وهو آخر مرتبة من مراتب الجهاد العام إلا الدفاع عن مســيرة الدعوة إلى الله وتبليغ رسالة الحق الإلهي، ولم يكن من مقاصد الجهاد القتال حبًا في القتال وسفك الدماء وإكراه الناس على الإيمان.

ولهــذا جاء الترتيب في درجات الجهاد في الوصية النبوية التي طبقهــا الصديق -رضــي الله عنه- علــى أمرائه معطيًا لــكل مرتبة

حقهـا مـن النظر في حالتـي القبـول والرفض، فـكان النص «فإذا لقيـت عدوك فادعهم إلى الإسـلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، وإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم» فالجهاد القتالي آخر مراتب الجهاد، لأن منهج المجتمع المسـلم لا يقصد إلى القتال حُبّـًا في القتال، ولا يسـتهدف القتال في دعوته رغبة في القتال، ولا يثيره ما كان له عنه مندوحة، وقد فتح أبواب المنادح أمام المدعوين إلى الله حتى لا تكون لهم حجة على المجتمع المسلم في جهاده لنشر دعوته وتبليغ رسالته.

المنهـج النبـوي يقـرر أن هدايـة إنسان واحـد خير من الدنيا وما فيها:

ويؤكـد ذلـك مـا رواه البخاري عن سـهل بن سـعد -رضي الله عنه- أن رسـول الله ﷺ قال يوم خيبر وهـو محاصرها: «لأعطين الراية غدًا رجلًا يفتح الله على يديه، يحبُّ الله ورسـوله، ويحبُّه الله ورسـوله، فبات الناس يدوكون -أي يتساءلون أيهم يُعْطاها- فلما أصبـح الناس غـدوا على رسـول الله ﷺ، كلهم يرجـو أن يعطاها -حتى قـال عمر بن الخطاب -رضي الله عنـه-: ما تمنيت الإمارة إلا يومئـذ- فقال النبـي ﷺ: «أين عليّ بن أبي طالب»؟ فقيل: هو يا رسـول الله يشـتكي عينيه، قال: فأرسـلوا إليه، فأتي به، فبصق رسـول الله ﷺ في عينيه ودعا له، فبـرأ مكانه، حتى كأن لم يكن بـه وجع، فأعطـاه الراية، فقال عليّ لرسـول الله ﷺ أقاتلهم حتى

يكونـوا مثلنـا ؟ فقال عليه الصلاة والسـلام : «أنفذ على رسـلك، حتى تنزل بسـاحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهـم من حقِّ الله فيه، فـو الله لئن يهدى الله بك رجلًا واحدًا خير من أن يكون لك حمر النعم».

وهـذا الحديـث الثابـت الصحيـح ظاهـر الدلالة فـي تصوير منهج النبي ﷺ لشـرعية الجهاد في الدعـوة إلى الله وما ينبغي أن تسـتهدفه هذه الدعوة، فعليّ -رضي الله عنه- يسأل النبي ﷺ عن قتـال هؤلاء الأعداء الخونة الغدرة، ليبيـن للناس ما نُزِّل إليهم من شـرعية الجهاد لحماية الدعوة إلى الله والدفاع عنها في مسـيرتها حتـى يعلموا أن الجهـاد في هذا المنهج إنما هو وسـيلة للهداية، وهي أعز ما يكسـبه المجاهدون فـي جهادهم، وأنها خير ما يؤتاه مَدْعُوٌّ إليها فيستجيب لها، وأن تألف القلوب وجذبها إلى ساحتها هـو ما يجب على المجاهدين أن يجعلوه نصب أعينهم ومقصدهم مـن جهادهـم، يقول الحافظ ابن حجر في الفتـح : ويؤخذ من هذا الحديث أن تألف الكافر حتى يسلم أولى من المبادرة إلى قتله.

منهج النبـي إطلاق الأسـرى المأخـوذين قبـل أن يُدْعَـو إلى الإسـلام:

ومن هنا يفهـم معنى ما أخرجه البيهقي عن أبيّ بن كعب قال : أُتي النبي ﷺ بأسـارى فقال رسـول الله ﷺ : «هل دعوتموهم إلى الإسـلام» فقالوا : لا، فقال لهم : «هل دعوكم إلى الإسلام» فقالوا : لا، فقال النبي ﷺ : «خَلُّو سبيلهم حتى يبلُغوا مأمنهم» ثم قرأ ﷺ

قولـه -تعالى- : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾ (الأحزاب: ٤٥، ٤٦) وقولـه -تعالى- : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴾ (الأنعام: ١٩).

هذا التصرف العملي التطبيقي الحكيم من النبي ﷺ فيه توطيد لدعائم منهجه في الجهاد، وهو ﷺ في سبيل تربية مجتمعه المسلم على الإحاطة بجوانب منهجه والتمسك به يرد عمل بعض أصحابه لابتنائه على خطأ في فهم منهجه التربوي الذي اتخذه أساسًا لبناء تركيب مجتمعه المسلم.

ومنهج تربيته ﷺ يقتضي وجوب دعوة الناس -أولًا- إلى الإسلام، فإذا اقتحم أحد هذا المنهج، وجاء بنصر حربي ظفر فيه بأسارى أسروا قبل أن يدعوا إلى الإسلام فعمله باطل، لا يقره منهج الإسلام ولا يرضى به رسول الله ﷺ الذي رسم لمجتمعه طريق تنفيذ منهجه في الجهاد.

فهؤلاء الأسارى الذين لم يُدْعَوا إلى الإسلام قبل أسرهم، فكان أسرهم باطلًا، لا يتفق مع وضع مراتب الجهاد، فَلْيُردُّوا أحرارًا حتى يبلغوا مأمنهم، تحقيقًا لعدالة منهج المجتمع المسلم في تربيته.

وكما صنع أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- في اعتصامه بوصية رسول الله ﷺ لأمراء جيوشه، صنع عمر بن الخطاب -رضي الله

عنه- ، فكان يوصي أمراء جيوشه بوصية رسول الله ﷺ ، فقد روى الطبري في تاريخه عن سليمان ابن بريدة أن أمير المؤمنين عمر -رضي الله عنه- كان إذا اجتمع إليه جيش من أهل الإيمان أمَّرَ عليهم رجلًا من أهلال العلم والفقه، فاجتمع إليه جيش، فبعث عليهم سلامة بن قيس الأشجعي -رضي الله عنه- ، فقال له: سِرْ على بركة الله، قاتل في سبيل الله من كفر بالله، فإذا لقيتم عدوكم من المشركين، فادعوهم إلى ثلاث خصال: ادعوهم إلى الإسلام فإن أسلموا فاختاروا دارهم فعليهم في أموالهم الزكاة، وليس لهم في فيء المسلمين نصيب، وإن اختاروا أن يكونوا معكم فلهم مثل الذي لكم، وعليهم مثل الذي عليكم، فإن أبوا فادعوهم إلى الخراج (أي الجزية)، فإن أقرُّوا بالخراج فقاتلوا عدوّهم من ورائهم وفرِّغوهم لخراجهم، ولا تكلِّفوهم فوق طاقتهم، فإن أبوا -أي الإقرار بالجزية- فقاتلوهم فإن الله ناصركم عليهم، وإن قاتلوكم فلا تغلُّوا ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا.

وهنا نقف قليلًا لنتأمل قول عمر -رضي الله عنه-: «فإن أقروا بالخراج فقاتلوا عدوهم من ورائهم» فإنه بيان لحكمة فرض الجزية على من أبى الإسلام بعد دعوته إليه.

ويوضح عمر -رضي الله عنه- في كتابه إلى قائده سعد بن أبي وقاص زمن تكرار الدعوة إلى الإسلام لتكون فرصة النظر والموادعة وافية بموضوعها، فيقول له -كما رواه أبو عبيد القاسم بن سلام عن يزيد بن حبيب-: إني قد كنت كتبتُ إليك أن تدعو الناس

إلى الإِسـلام ثلاثة أيام، فمن استجاب لك قبل القتال فهو رجل من المسلمين له ما للمسلمين وله سهم في الإِسلام.

الوصية النبوية هي قاعدة الجهاد عند القادة والخلفاء:

وتحديـد زمـن الدعوة إلى الإِسـلام بثلاثة أيام لتكـون الفرصة وافيـة بالنظر منهجُ النبي ﷺ، أخـذه عنه أصحابه من قادة جيوش الإِسـلام، فقد أخرج الترمذي أن جيشًا من جيوش المسلمين كان أميرهم سـلمان الفارسـي حاصـروا قصرًا من قصور فـارس، فقال المسـلمون لقائدهم: يا أبا عبد الله، ألا ننهد إليهم؟ قال سلمان، دعوني أدعهم كما سمعت رسول الله ﷺ يدعوهم فأتاهم سلمان، فقـال لهم: إنما أنا رجل منكم فارسـي، تـرون العرب يطيعونني، فـإن أسـلمتم فلكم مثل الذي لنـا وعليكم مثل الـذي علينا، وإن أبيتـم إلا دينكـم تركناكم وأعطونـا الجزية، وإن أبيتـم نابذناكم علـى سـواء، قالوا: مـا نحن بالذي نؤمـن وما نحـن بالذي نعطي الجزية ولكنَّا مقاتلوكم، فقال المسـلمون لقائدهم: يا أبا عبد الله ألا ننهد إليهم؟(٧) قال: لا، فدعاهم ثلاثة أيام إلى مثل هذا، ثم قال لأصحابه: انهدوا إليهم فنهدنا ففتحنا ذلك القصر.

وأخـرج عبد الرزاق عن عليّ -رضي الله- عنه أن النبي ﷺ قال له: «لا تقاتل قومًا حتى تدعوهم» وروى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: ما قاتل النبيُّ ﷺ قومًا حتى دعاهم.

(٧) يقولـون عـن القـوم في الحـرب أو غيره ممـا يحتـاج فيه إلـى الكثرة والتعـاون، نهد بعضهم إلى بعض بمعنى نهضوا. (المجلة)

ومـن غرر هذا المنهـج وفوائـده القاطعة بأن هـدف المجتمع المسـلم الـذي ربّاه النبي ﷺ علـى منهجه إنما هـو هداية الخلق إلـى توحيـد الله، وإلى إقامة العدل وإشـاعة الرحمـة والمودة بين الناس ما رواه ابن منده عن عبد الرحمن بن عائذ قال: كان رسـول الله ﷺ إذا بعـث بعثًا قال لهم: «تألفوا النـاس، ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم -أي إلى الإسلام- فما على الأرض من أهل بيت مَدَرٍ ولا وبر إلا تأتوني بهم مسـلمين أحبّ إليّ من أن تأتوني بنسـائهم وأولادهـم وتقتلوا رجالهم» وروى الطبراني عن مسـور بن مخرمة قال: خرج رسـول الله ﷺ على أصحابه فقال: «إن الله بعثني رحمة للنـاس كافة، فأدّوا عني، ولا تختلفوا عليّ كما اختلف الحواريّون على عيسى -عليه السلام-».

كان هـذا المنهـج النبوي في الدعوة إلـى الله بالجهاد المعتمد على المؤاخـاة في الله، والمؤاخاة التكافليـة بين أفراد وجماعات المجتمـع المسـلم هـو منهج الراشـدين الـذي ورثوه عـن النبي ﷺ، قولًا، وعملًا، في غزواته وبعوثه وسـراياه، أخذه الراشـدون فطبَّقوه، وجعلوه وصيتهم إلـى قادة جهادهم في جميع فتوحاتهم المباركـة ووقائعهم المظفرة: دعـوة إلى الله وتوحيده، ودعوة إلى دينه الحق وشرائعه، ونهوضًا بتبليغ رسالته، وموادعته فترة زمنية كافيـة للنظر المتأمـل، تكرر فيها الدعوة إلـى الله وبيناتها، ثلاثة أيام، لا يهاج فيها أحد من المدعوِّين، ولا يمس لهم فيها شيء من مال أو غيـره، ولا يمنعون من حرية الحركة في القيام بمصالحهم وأمور حياتهم.

فإن لم يستجب المدعوون لهذه الدعوة الكريمة، ولم تهْدِ فرصة النظر المتأمل قلوبهم إلى قبول الحق والهدى وخلع ربقة الوثنية من أعناقهم، فدعوة إلى الجزية والموادعة التي لا تقيد بزمن ما دام الوفاء بالعهد قائمًا. وهذه الجزية مشروطة بتعهد من قبل قادة الجهاد أن يلتزموا بحماية أهل عهدهم الذين يؤدون الجزية ما دام أولئك القادة قادرين على هذه الحماية، فإن عجزوا عنها وجب عليهم أن يعلنوا ذلك لأهل عهدهم، وأن يردّوا عليهم ما أخذوه منهم من الجزية.

وقد جاء هذا صريحًا في عهد صلح أبي عبيدة بن الجراح القائد العام في فتوح الشام بعد خالد بن الوليد -رضي الله عنه-، فقد روى الإمام أبو يوسف في كتاب (الخراج) قال: إنما كان الصلح جرى بين المسلمين وأهل الذمة في أداء الجزية، وفُتحت المدن على أن لا تهدم بيعهم ولا كنائسهم، داخل المدينة ولا خارجها، وعلى أن يحقِنوا لهم دماءهم وعلى أن يقاتلوا من ناوأهم من عدوِّهم، ويذبُّوا عنهم.

ثم قال أبو يوسف: فلما رأى أهل الذمة وفاء المسلمين لهم وحسن سيرهم فيهم صاروا أشدَّ على عدوِّ المسلمين وعونًا للمسلمين على أعدائهم، فبعث أهل كل مدينة ممن جرى الصلح بينهم وبين المسلمين رجالاً من قبلهم يتجسسون الأخبار عن الروم وعن مُلكهم، وما يريدون أن يصنعوا، فأتى أهل كل مدينة رسلُهم يخبرونهم بأن الروم قد جمعوا جموعًا لم يُرَ مثلها، فأتى رؤساء

أهـل كل مدينة إلى الأميـر الذي خلّفه أبو عبيـدة عليهم فأخبروه بذلـك، فكتب والي كل مدينة ممن خلَّفه أبو عبيدة إلى أبي عبيدة يخبره بذلك، وتتابعت الأخبار على أبي عبيدة، فاشـتد ذلك عليه وعلـى المسـلمين، فكتب أبـو عبيدة إلـى كل والٍ ممَّن خلّفه في المـدن التي صالـح أهلها يأمرهـم أن يردوا عليهم مـا جُبي منهم من الجزية والخـراج، وكتب لهم أن يقولوا لهم: إنا رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جُمع لنا من الجموع، وإنكم اشترطتم علينا أن نمنعكـم، وإنـا لا نقدر على ذلك، وقد رددنـا عليكم ما أخذنا منكم، ونحن لكم على الشرط، إن نصرنا الله عليهم.

وكتب أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب يخبره بذلك، فكتب إليه عمر يقرّه على صنيعه مع المصالحين، ويقول له في كتابه: وامنع المسـلمين مـن ظلمهم والإضرار بهـم، وأكل أموالهم إلا بحقها، ووَفِّ لهم بشرطهم الذي شُرط لهم في جميع ما أعطيتهم.

وفـي كتاب خالد بن الوليد -رضي الله عنه- في مصالحته لأهل الحيرة الذي بعث به إلى أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- يخبره بما تم بينه وبينهم يقول: إني نظرت في عدَّتهم فوجدتهم سـبعة آلاف رجـل، ثـم ميّزتهم فوجدت مَـن كانت به زِمانـة ألفَ رجل، فأخرجتهم من العدّة، وشـرطت عليهم أن عليهم عهد الله وميثاقه الذي أُخِذ على أهل التوراة والإنجيل أن لا يخالفوا ولا يعينوا كافرًا على مسـلم مـن العرب ولا من العجـم، ولا يدلُّوهـم على عورات المسـلمين، عليهم بذلك عهد الله وميثاقه الذي أخذ أشـد ما أخذ

علــى نبي مــن عهد أو ميثــاق أو ذمة ، فإن خالفوا فــلا ذمّة لهم ولا أمان ، وإن هم حفظوا ذلك ورعوه ، وأدَّوه إلى المســلمين ، فلهم ما للمعاهد ، وعلينا المنــع لهم ، فإن فتح الله علينا فهم على ذمتهم ، لهــم بذلك عهــد الله الذي أُخِذ أشــد ما أخذ على نبــي من عهد أو ميثاق ، وعليهم مثل ذلك .

وجعلــتُ لهــم أيما شــيخ ضعف عــن العمل أو أصابتــه آفة من الآفــات ، أو كان غنيًــا فافتقــر ، وصــار أهــل دينه يتصدقــون عليه طُرحت جزيته ، وعِيل من بيت مال المسلمين وعياله .

هذه هي قصة الجزية في الفتوحات الإسلامية ، والإسلام في أوج عظمتــه وعنفوان اندفاعه في الدعوة إلــى الله ، وهذه صور ونماذج من معاملة المسلمين وقادتهم لمن عوهدوا منهم عليها .

فأيــن الإكــراه والقهر فــي نظام الجزيــة ؟ فأين الســيف ؟ وأين القهر ؟ وأين الإكراه على الدخول في الإسلام ؟ لا شيء من ذلك قد كان قط ، ولكن الذي كان إنما هو دعوة إلى الحق وصفاء التوحيد وإخلاص العبودية لله تعالى في ظل من الحرية الطليقة من كل قيد ، وفــي ظل من حفاوة العدل والرحمة وتحمل أعباء الحماية والدفاع عن المعاهدين المصالحين ممن يناوئهم ويعتدي عليهم .

فإن ركب المدعوون إلى الحق والهدى متن الشــيطان بعد هذه الحفــاوة الرحيمة ، ولجــوا في العناد والاســتكبار وفجــور الكفر والإلحاد لم يبق أمام المجاهدين في سبيل تبليغ رسالات الله ونشر النور والخير إلا القتال الذي يفل شوكة العتو العنيد ، ويطهر الحياة

من أوضار الشـرك والوثنية الملحدة، وهما مصدر كل شر، ومنبع كل فساد في الأرض، حتى يحكم الله بين كتائب المجاهدين وبين أعدائهـم بإعلاء كلمة الحق ونشـر العدل، وإنقاذ المسـتضعفين فـي الأرض من ظلم الطغاة المتجبرين، والموت في سـبيل إحقاق الحق، وإقامة منائر التوحيد، وهدم الوثنيات المادية الجارفة أحب إلى كتائب المجاهدين من حبِّ أعدائهم أحلاس الشرك للحياة.

روى الطبـري أن خالـد بـن الوليـد -رضـي الله عنـه- لما نزل الحيرة خرج إليه أشـرافها مع أميرهم قبيصة بن إياس الطائي فقال لهـم خالـد: أدعوكـم إلى الله وإلى الإسـلام، فإن أجبتـم فأنتم من المسـلمين لكم ما لهم، وعليكم ما عليهم، فـإن أبيتم فالجزية، فـإن أبيتم فقد أتيتكـم بأقوام هم أحرص على المـوت منكم على الحياة، وجاهدناكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم.

صور ناطقـة من تطبيـق قـادة الجهـاد منهـج الدعـوة إلى الله:

وروى الطبري أيضًا: أن جيش المسلمين لما واجه جيش الفرس بعث رستم إلى سعد بن أبي وقاص أن ابعث إليَّ برجل عاقل، عالم بما أسأله عنه، فبعث إليه المغيرة بن شعبة، فلما قدم المغيرة إلى رسـتم جعل رسـتم يقول له: إنكم جيراننا، وكنا نحسـن إليكم، ونكـف الأذى عنكم، فارجعوا إلـى بلادكم ولا نمنع تجارتكم من الدخـول إلى بلادنا. فقال له المغيرة: إنا لسـنا طلاب دنيا، وإنما همُّنا وطلبنا الآخرة، وقد بعث الله إلينا رسولاً، قال له: إني سلطت هذه الطائفة على مَن لم يدن بديني، فأنا منتقم منهم بهم، وأجعل

الغلبـة لهم ما داموا مقرين بـه، وهو دين الحق، لا يرغب عنه أحد إلا ذلّ ولا يعتصم به أحد إلّا عزّ.

المغيرة بـن شعبة ورستـم الفارسي في محـاورة لعرض مبادئ الإسلام:

فقال رستم: ما هـذا الدين؟ قال المغيرة: أمـا عموده الذي لا يصلح شـيء منه إلا به فشـهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسـول الله، والإقرار بما جاء به من عند الله. فقال رسـتم: ما أحسـن هذا؟ وأي شيء أيضًا؟ فقال المغيرة: وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله. فقال رسـتم: وحسـن هذا أيضًا، وأي شيء أيضًا؟ فقال المغيرة: والناس بنو آدم، فهم إخوة لأب وأم. قال رسـتم: وحسن هـذا أيضًا، أرأيتـم إن دخلنا في دينكم أترجعون عـن بلادنا؟ قال المغيرة: إي والله، لا نقرب بلادكم إلا في تجارة أو حاجة.

ربعي بن عامر يعرض الإسلام على رستم قائد الفرس:

ثم ذاكر رسـتم قومه في الإسـلام، فأخذتهم الأنفة والعنجهية، فأبوا أن يسـتجيبوا له، فأرسل رسـتم إلى سعد يطلب رسولاً آخر، فأرسـل إليه سـعد ربعي بن عامـر، فذهب ربعي إلى رسـتم في بزة عربية وهيئة بدوية متقشـفة، لا تقيم لزينـة الدنيا ومظاهرها وزنًا حتى وطئ بسـاط رستم بفرسه، ودخل عليه بسلاحه، بينما رستم قـد اتخذ مجلسًـا ملوكيًـا مترفًا مزخرفًا مزركشًـا، أكثـر فيه من مظاهر الزينة، وتحلّـى بالجواهر واللآلئ، فلما بلغ إليه ربعي قال

لـه رسـتم : ما جاء بكم ؟ قـال ربعي : الله بعثنا لنخرج مَن شـاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سـعتها ، ومن جَور الأديان إلى عدل الإسـلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه ، فمَـن قبـل ذلك قبلنا منه ورجعنـا عنه ، ومن أبى قاتلنـاه أبدًا حتى نفضـي إلى موعود الله . فقال رسـتم : وما موعـود الله ؟ قال ربعي : الجنة لمن مات على قتال مَن أبى ، والظفر لمن بقي .

قال رسـتم : قد سـمعتُ مقالتكم ، فهل لكـم أن تؤخروا الأمر حتـى ننظر وتنظروا ؟ قال ربعي : كم أَحَبَّ إليكم ، يومًا أو يومين ؟ قال رسـتم : لا ، حتى نكاتب أهل رأينا ورؤسـاء قومنا . قال ربعي : ما سـنّ رسـول الله ﷺ أن نؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث ، فانظر في أمرك وأمرهم ، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل .

فقال رسـتم : أسـيّدهم أنت ؟ قال ربعي : لا ، ولكن المسـلمين كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم .

ثم اجتمع رسـتم برؤسـاء قومه ، فقال لهم : هـل رأيتم قط أعز وأرجح من كلام هذا الرجل ؟ قالوا : معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا ، وتدع دينك ؟ ألم تر إلى ثيابه ؟ فقال لهم رسـتم : ويلكم ؟ لا تنظروا إلى الثياب ، وانظروا إلى الرأي والكلام والسيرة .

وذكـر ابن كثيـر في تاريخـه (البدايـة والنهاية) أن سـعد بن أبي وقاص - وكان جيشـه لا يزيد على سـبعة آلاف ، والمشركون أضعاف أضعافهم - لما نزل القادسية أرسل طائفة من أصحابه إلى كسـرى (يزدجرد) يدعونه إلى الله قبل التحام القتال ، فاستأذنوا

على كسرى، فأذن لهم، وخرج أهل البلد ينظرون إلى أشكالهم، وأرديتهم على عواتقهم، وسياطهم بأيديهم، ونعالهم في أرجلهم، وهم على ظهور خيولهم الضعيفة وجعلوا يتعجبون منهم غاية العجب، كيف يقهر هؤلاء جحافل جيوشهم؟

محاورة النعمان بن مقرن وكسرى (يزدجرد):

ولما دخلوا على كسرى جعل يسألهم - استخفافًا بهم - عن ملابسهم وأسمائهم، ثم قال لهم: ما الذي أقدمكم هذه البلاد؟ أظننتم أنا لما تشاغلنا عنكم بأنفسنا اجترأتم علينا؟ فقال النعمان بن مقرن - أحد أبطال الإسلام وقواده- : إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولاً يدلنا على الخير، ويأمرنا به، ويعرفنا الشر، وينهانا عنه، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة، فلم يدع إلى ذلك قبيلة إلا صاروا فرقتين: فرقة تقاربه، وفرقة تباعده، ولا يدخل معه في دينه إلا الخواص، فمكث ذلك ما شاء الله أن يمكث، ثم أمر أن ينهد إلى من خالفه من العرب، ويبدأ بهم ففعل فدخلوا معه جميعًا على وجهين: مكروه عليه فأغبطه وطائع إياه فازداد، فعرفنا جميعًا فضل ما جاء به على الذي كنا عليه من العداوة والضيق، وأمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف، فنحن ندعوكم إلى ديننا، وهو دين الإسلام حسَّن الحسن وقبَّح القبيح كله، فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه الجزاء، فإن أبيتم فالمناجزة، وإن أجبتم إلى ديننا خلَّفنا فيكم كتاب الله وأقمنا عليه على أن تحكموا بأحكامه، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم، وإن أتيتمونا بالجِزَى قبلنا ومنعناكم، وإلا قاتلناكم.

فتكلـم يزدجرد فقال: إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشـقى ولا أقـل عددًا ولا أسـوأ ذات بينٍ منكم، وقـد كنّا نوكل بكم قرى الضواحي ليكفوناكم، ولا تغزوكم فارس، ولا تطمعون أن تقوموا لهـم، فإن كان عددكم قـد كثر فلا يغرنكم منـا، وإن كان الجَهْد دعاكـم فرضنا لكـم قوتًا إلى خصبكـم[٨]، وأكرمنـا وجوهكم، وكسوناكم، وملّكنا عليكم ملكًا يرفق بكم.

المغيـرة بن شعبة يأخذ زمام المبـادرة في المحاورة مع يزدجرد:

فقام المغيرة بن شـعبة فقال: أيها الملك، هؤلاء رءوس العرب ووجوههـم، وهم أشـراف يسـتحيون من الأشـراف، وإنما يكرم الأشـراف الأشراف، ويعظِّم حقوق الأشراف الأشراف، وليس كل ما أرسـلوا إليـه جمعوه لك، ولا كل ما تكلمت بـه أجابوك عليه، وقد أحسـنوا، ولا يحسـن بمثلهـم إلا ذلك، فجاوبنـي فأكون أنا الذي أبلغك ويشهدون على ذلك.

إنـك قد وصفتنـا صفةً لم تكن بهـا عالمًا، فأما مـا ذكرتَ من سوء الحال فما كان أحد أسوأ منا حالاً، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجـوع، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيّات، ونرى ذلك طعامنا.

(٨) قولـه: فرضنـا لكـم قوتـا إلى خصبكم بمعنـى فرضنا لكم رزقـا تعيشـون منه إلى أن ينزل المطر وتجدون مـا يكفيكم. (المجلة)

وأمـا المنازل فإنما هي ظهـر الأرض، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبـار الإبل وأشـعار الغنم، ديننا أن يقتل بعضنـا بعضًا، وأن يبغي بعضنا على بعض، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهي حية كراهية أن تأكل معه طعامه.

وكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرتُ لك، فبعث الله إلينا رجلاً معروفًا نعرف نسـبه، ونعرف وجهه ومولـده، فأرضُه خير أرضنا، وحسـبه خير أحسـابنا، وبيته خير بيوتنا، وقبيلتـه خير قبائلنا، وهو نفسـه كان خيرنا في الحال التي كان فيها، أصدقنا وأحلمنا، فدعانـا إلى أمـر لم يجبه أحد أول تِرْب كان لـه الخليفة من بعده، فقـال وقلنا وصدّق وكذبنا وزاد ونقصنا، فلم يقل شـيئًا إلا كان، فقذف الله في قلوبنا التصديق له واتباعه، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين، فما قال لنا هو قول الله، وما أمرنا فهو أمر الله، فقال لنا: إن ربكم يقول أنا الله وحدي لا شريك لي، كنت إذ لم يكن شيء، وكل شيء هالك إلاّ وجهي، وأنا خلقت كل شيء، وإليّ يصير كل شيء، وإنّ رحمتي أدركتكم فبعثت إليكم هذا الرجل لأدلّكم على السـبيل التي أنجيكم بها بعد الموت من عذابي، ولأحلَّكم داري، دار السـلام، فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق، وقال: من تابعكم على هذا فله ما لكم، وعليه ما عليكم، ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم، ومن أبى فقاتلوه فأنـا الحَكَم بينكم، فمن قُتل منكم أدخلته جنتي، ومن بقي منكم أعقبته النصر على من ناوأه.

فاختر إن شئت الجزية، وإن شئت فالسيف، أو تسلم فتنجي نفسك، فقال (يزدجرد) أتستقبلني بمثل هذا؟ قال المغيرة: ما استقبلت إلا من كلمني، ولو كلمني غيرك لم أستقبلك به.

قال يزدجرد: لولا أن الرسل لا تُقتل لقتلتكم، ولا شيء لكم عندي، ثم قال: ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أني مرسل إليه رستم حتى يدفعه وجنده في خندق القادسية، وينكل به وبكم من بعده، ثم أورده بلادكم حتى أشغلكم بأنفسكم.

محاورة عمرو بن العاص رهبان أقباط مصر ودعوتهم إلى الله:

وفي فتح مصر روى الطبري وغيره أن عمرو بن العاص لما خرج إلى مصر استقبله أهلها فعاجلوه القتال، فأرسل إليهم: لا تعجلونا لنعذر إليكم، وتروا رأيكم بعد، فكَفُّوا. وأرسل إليهم عمرو: إني بارز، فليبرز إليّ أبو مريم وأبو مريام، فأجابوه إلى ذلك، وأمَّن بعضهم بعضًا، فقال هلم عمرو: أنتما راهبا هذه البلدة فاسمعا: إن الله بعث محمدًا ﷺ بالحق وأمر به، وأمرنا محمد ﷺ وأدّى إلينا كل الذي أمره به، ثم مضى صلوات الله ورحمته وقد قضى الذي عليه، وتركنا على الواضحة، وكان مما أمرنا به الإِعذار إلى الناس، فنحن ندعوكم إلى الإِسلام، فمن أجابنا إليه فمثلنا، ومَن لم يجب عرضنا عليه الجزية وبذلنا له المنعة، وقد أعلمنا أنّا مفتتحوكم، وأوصانا بكم حفظًا لرحمنا فيكم، وإن لكم إن أجبتمونا بذلك ذمة وذمة، ومما عهد إلينا أميرنا: استوصوا

بالقبطيين خيرًا فإن رسـول الله ﷺ أوصانـا بالقبطيين خيرًا ؛ لأن لهم رحمًا وذمة .

❀ ❀ ❀

في إطـار هذا النمط من البحث الذي رسـم خطوطه الأساسـية المنهـج النبوي في تربية المجتمع المسـلم ننظر في أهم غزوات النبي ﷺ التي قادها بنفسه الكريمة ، لنصوِّر من واقعها في الحياة أسـبابها وأحداثهـا ووقائعها التـي أملى سـطورها المنهج النبوي الـذي قام على أساسـه تركيب المجتمـع المسـلم ، معتمدًا على دعائـم المؤاخاة التكافلية بين جماعات هذا المجتمع في دسـتور مكتوب بأمر النبي ﷺ ، بعد أن أحكمت وشائج مؤاخاة الحب في الله ولله بيـن أفراد طلائع المجتمـع من المهاجرين والأنصار الذين آخـى بينهم النبي ﷺ في مشـرق حياتهم الجديـدة بالمدينة بعد الهجرة ، فقال لهـم : « تآخوا في الله ، أخوين ، أخوين » .

والمؤاخـاة في الله تعني في حياة المجتمع المتآخي على الحب فـي الله . والحب يذيـب الفواصـل والفوارق الشـخصية ، ويمحو (الأنانيـة) ؛ فهـي مؤاخـاة تركـز في وجودهـا على التمـازج بين المتآخيَيْـن تمازجًـا لا يرى فيه أحد الأخوين أنّ له شـيئًا ليس هذا الشـيء عينه لأخيه ، بل يرى أن هذا الشيء الذي في يده هو لأخيه في يده قبل أن يكون لنفسه .

فالمؤاخـاة بنوعيهـا الفـردي والجماعي آية من آيـات المنهج

النبوي التي أريد بها فيه أن تكون صورة حية للتربية السلوكية المنطلقة في مسيرة الدعوة إلى الله بروحانيتها ووحدتها الإيمانية، ليستعيد بها المجتمع - إذا عاد إليها - مكانته في هداية الإنسانية لإصلاح ما أفسده العلم المادي من حياتها الفكرية وحياتها الروحية.

وقد كان يكفي البحث في البرهنة القاطعة على أن غزوات النبي ﷺ لم تكن لتستهدف قط إكراه أحد على اعتناق دين لم يؤمن به إيمانًا عقليًا وروحيًا، ما قدمناه من النصوص التطبيقية في دلالتها البيِّنة على أن الهدف من هذه الغزوات إنما هو الدعوة إلى الله، وفتح الطريق أمام مسيرة تبليغ الرسالة لإخراج الإنسانية من الظلمات إلى النور، وإنقاذها من التعبُّد للوثنيات في جميع صورها وأشكالها المادية الملحدة، لتعيش في ظل من وحدة الإيمان، ولتبني حضارتها على المؤاخاة والحب لا على نظريات العلم المادي المدمِّر لمظاهر الحياة، المفسد للتفكير، المنحرف بالسلوك الإنساني عن جادة الاستقامة.

أعداء الإسلام في ألوانهم المختلفة لا تقنعهم البراهين القاطعة:

بيد أننا رأينا أعداء المجتمع المسلم المتظاهرين بالبحث العلمي وحرية الفكر يتشكّلون في صور وألوان مختلفة، فهي تارة استشراقية، تدّعي البحث العلمي، وتتباكى على حرية التفكير، وتارة تبشيرية تزعم أنها تهدي إلى حق وإصلاح،

وأخرى سياسـية تحـاول أن تجعل من الحياة حقـلاً لتجارب عدل الظالميـن المادِّيين في المجتمع البشـري، ومرة أخرى اجتماعية تخـدع الناس عـن حرياتهم وتخادعهم عن خصائص إنسـانيتهم، لتتخـذ من هذا الخـداع والمخادعة منحدرًا إلـى هاوية إذابة الفرد في تنـور المجتمع البشـري المشـتعل بنيران الحقـد، والتنافس المادي المثير للفتن والشـرور – يتناولون في مؤلفاتهم وصحفهم ومجلاتهـم ووسـائل إعلامهـم، وأحاديـث أنديتهـم وجامعاتهم المجتمـع المسـلم ومنهجه في الحيـاة بالطعن الجـارح والألفاظ النابية، زاعمين أن هذا المجتمع مجتمع حرب وقتال، تُسفك فيه الدماء، وتُجمـع الغنائم والأموال لإكراه النـاس على الاندماج في تركيبـه الاجتماعي الإيماني بقوة السـيف والقهر، وهم في ذلك مفتـرون كاذبون ويعلمون أنهم كاذبون، ولكن العصبية الحانقة، والحقـد المغيظ الـذي يملأ قلوبهم على هذا المجتمع المسـلم، وما ورثوه عن أسـلافهم فـي الكفر والإلحاد مـن أن هذا المجتمع المسـلم هو الـذي دوّخ ممالكهم وقـوَّض إمبراطورياتهـم، وأقام على أنقاضها ملكًا مسلمًا عاش على منهجه فيها قرونًا، ثم أُخرج منهـا، ولكن آثـاره فيها لا تزال رغم مرور الأعـوام والقرون قائمة تنادي المجتمع المسلم أن تيقظ فإن لك أوطانًا سليبة تنتظرك إذا عدت لمنهجك الأصيل في الحياة – هي التي أعمت بصائرهم عن الحـق، فلم يبصروه إلا من منظار الحقد الدفين. والحقدُ ظلمة في القلب تحيط بأقطاره فتحجب عنه كل أنوار الحياة.

شباب الإسلام المخدوع بالمظاهر المادية أشد خطرا على الإسلام من أعدائه:

ونرى إلى جانب هؤلاء الأعداء الحاقدين صورًا من المستضعفين في أوطان الإسلام من ذوي الشخصيات (الببغاوية) -لا سيما الشباب الغرِّير المغرَّر به الذي خدعته وتخدعه دعاوى العصرية والتجدّد والتجديد، والحرية والتقدمية، والتفكير الصاعد، والمبادئ الاجتماعية المزركشة، والطرائق السياسية المنافقة، والنظم الاقتصادية المخرِّبة، والأوضاع السلوكية المفسدة من كل ما يُرى في أنماط الحياة المترفة المتخالعة، المائعة التي يعيش فيها هذا الشباب العاري من الحصانة الروحية، والخالي من المناعة الخلقية، الخاوي من المعرفة الإسلامية، معرفة يستطيع بها مقاومة الإغراء الشهوي المستهتر الخليع من خصائص الرجوليّة الحقة.

هذا الشباب المضيع في أشد الحاجة إلى التحصين الخلقي والفكري قبل أن يلقى به بين أحضان أعدائه وأعداء مجتمعه:

هذا الشباب المعذَّر ضائع مُضيَّع، لا يعرف عن حقيقة تاريخه الإسلامي، وتراث هذا التاريخ الفكري إلا شيئًا ضئيلاً، لا يغني في حماية هذا الشباب من اللوثات المنحرفة أي غناء؛ لأنه شباب ضيّعه أهله، وعيَّشوه في جهالة مغلّفة بشعارات دعائية وتقاليد مستوردة من وراء البحار والسهوب، وأنظمة جوفاء في أشباح جامعيّة وصور دراسية، في أوطانه المسلمة، وليس في هذه النظم والدراسات إلاّ تزجية الفراغ، يتلقَّى فيها الشباب المسلم قشورًا من المعرفة

عسرة الهضم، لا تُحلي ولا تُمرّ، ولا تنفع ولكنها تضر، ثم تنتهي هذه الدراسات الخاوية بجواز للوظيفة أو البعث إلى أحضان سدنة العلم الخادع من طوائف المستشـرقين والمبشِّرين في جامعاتهم ليصنعوا من هذا الشـباب خبزة سهلة الازدراد في صورة (دكترة) تتيح له أن يتبوأ أعلى المناصب في وطنه المسـلم المخدوع، وهو مجلل بالجهالة لتاريخ أمته ومجتمعه، ولكنه مسـربل بما لُقّن من معـارف غريبة عنـه وغريب هو عنها لتكون مطيـة له ولأمثاله إلى اعتلاء عروش إدارة الحكم في وطنه.

وهؤلاء السدنة للبحث العلمي وحرية الفكر من أعداء الإسلام المندسُّـون وراء الحياد الفكري يسـتقبلون هذا الشـباب المسلم وهو مفعم الصدور بإعظامهم، وإعظام حياة أوطانهم وجماعاتهم، والاسـتطارة فرحًا بمظاهر حضارتهم المادية، وهم به فرحون فرح الصائد بما يقع في شـباكه من صيـد ثمين، ثم يأخذون في تلقينه مـا يعلم وما لا يعلم مما يريدون أن يعدّوه به، ويهيّئوه له، ليكون حين عودته إلى وطنه ومجتمعه المسـلم لسانهم الناطق، وعينهم الباصرة، وآذانهم اللاقطة، ويدهم الباطشـة بكل فضيلة مسـلمة، وكل تربية مسـلمة، وكل سـلوك مسـلم، وكل فكر مسـلم، وما يزالون به يتابعونـه حتى يصلوا في صنعه إلى خبيء ضمائرهم من المرتبة العليا في التحبب إليهم بانحرافه عن العقيدة المسلمة إلى إلحـاد مغرور متنفـج[٩]، بما توهَّم أنه وصل إليـه من علم ومعرفة

(٩) المتنفج: المفتخر. (المجلة)

وتفكير جديد، وعندئذ يرسلونه إلى وطنه المسلم، يحمل لقبًا علميًا ضخمًا، وفي يمينه حفيظة الوصايا له، وإليه، وبه، عند من بيدهم أزمة الأمور في المجتمع المسلم، وبيدهم الحل والعقد وبيدهم مفاتيح خزائن الأرض.

ولا ينسون في وصاياهم له أن يعطوه مواصفات كاملة مفصلة للذين يعملون معه فيما يسند إليه من عمل، ويوسّد إليه من إدارة، ليكونوا بطانته التي تخزن أسراره، يقربون إليه من يشاءون ويُبعدون عنه من يشاءون، وهم أمناؤه، فلا يقرِّبون إليه إلا مَن كان على شاكلتهم في سلوكهم (الحضاري)، ولا يُبعدون عنه إلا كل مسلم عليم، مترفع عن الدنايا السلوكية؛ لأن هذا المسلم العليم أمين على عقيدته، قوي التمسك بها، فهو - في نظرهم - جامد التفكير، معوّق للتقدم الحضاري المادي، لعدم أخذه بمظاهر الحضارة المستوردة من وراء البحار والسدود والسهوب، المنطلقة من سائر القيود.

إن أخطر شيء في حياة المجتمع المسلم وحاضره الذليل الممزق ضياعُ شبابه بهذا الوباء المتفشي في كثير من أوطان الإسلام، ذلك الوباء هو وباء بعث الشباب إلى أوطان أعداء المجتمع المسلم دون أن يكون لدى هذا الشباب حصانة خلقية وفكرية تحمي سلوكه من الانحراف، وتصون تفكيره من الانزلاق إلى منحدرات الإلحاد المحجَّب والمكشوف.

حصِّنوا الشباب بالعلم الإسلامي، والخلق الإسلامي، وأعيدوا النظر في مناهج المراحل التعليمية، وضعوا برامج تربوية مسلمة، ثم ابعثوا بالشباب إلى حيث يزداد علمًا وخلقًا وتفكيرًا، ليعود إليكم في صورة مسلمة منظّمة الإطار.

فهل يمكن أن نبني مناهج جامعاتنا على دعائم تحصين شبابنا خُلقيًا وعلميًا لنضمن وجوده سليمًا لنا وحياته لأوطاننا المسلمة، حتى نجد فيه القائد الغَيْران على عقيدته ودينه وخلقه المسلم ممثلاً في تربيته وسلوكه.

إن ذلك ممكن وواجب التنفيذ، ولكنه يحتاج إلى قوة إيمان بوجودنا ومقوِّماتنا وخصائص مجتمعنا المسلم التاريخية، ويحتاج إلى دراسة لسياستنا التعليمية من القاع إلى القمّة، ويحتاج إلى الإيمان بأن الإحسان في الكيف والحقيقة خير من كثرة المظاهر المادية الجوفاء، التي إن لم تتدارك وتحصّن بالأخلاق والعلم المسلم فستهدم في بغتة على رءوس مشيِّديها، والله تعالى وعظنا وضرب لنا الأمثال لنعتبر: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ (الحج: ٤٥، ٤٦).

شباب الإسلام لن يقبل أباطيل أعدائه إذا عرف دينه:

إن شبابنا المسلم - وهو عصب حياتنا - لو كان في دراسته المنهجية في جميع مراحل التعليم قد درس - مثلاً - السيرة النبوية دراسة بحث ممحص، وعقيدة راسخة، ودرس تاريخ الفتوحات الإسلامية، لا سيما في مطالعها الأولى التي كانت صورة متطابقة للمنهج النبوي في تربيته المجتمع المسلم، ودرس معها الانزلاقات المحرفة للمنهج النبوي عن سَمْته الذي وضعه فيه النبي ﷺ، لما كان من بينه مَن يقبل دعاوى الأعداء والأدعياء، ولا سيما هذه الدعوى البالية دعوة انتشار الإسلام بالسيف والقهر وسفك الدماء وجمع المال، وهي دعوى حورب بها المدّ الإسلامي وهو في عنفوان قوته واندفاع تياراته حاملا دعوة الهدى والحق، وكان المجتمع المسلم قد بدأ يتحول عن مجراه على منهجه التربوي السلوكي، الذي قام على أساس الوحدة التكافلية حيث انصدعت صفات تلك الوحدة، وتناثرت إلى دويلات هزيلة يكيد بعضها لبعض، والعدو من ورائها يشعل نيران الفتن هنا وهناك، فانحسر تيار المسيرة المسلمة، وجمد ووقف مكبلاً بأغلال الفرقة التي لم يغب عنه ليلها المظلم.

وأصحاب هذه الدعوى الزائفة البالية الكاذبة وجدوا فيها سلاحًا ماضيًا يحاربون به المجتمع المسلم بعد أن أناموه بها وبأمثالها من الافتراءات الباطلة، وأفقدوه الشعور بنفسه وحياته وتاريخه ومنهجه ومقوماته الذاتية وخصائصه التربوية.

ومن أعجب العجب في باب محاربة أعداء المجتمع المسلم لهذا المجتمع، والقضاء على حياته، وهو يحشرج تحت وطأة هذه الأكاذيب أن أعداء هذا المجتمع المسلم وجدوا في بعض أبنائه (الجغرافيين) من أدعياء التجدّد والتجديد، والتقدميّة، والحرية الفكرية من ألبسوهم خلعة التسامح والترفع عن العصبية الدينية، ليعزِّزوا بهم وبأكاذيبهم المتخاذلة تهمة الإكراه، والقهر، والسيف، وسفك الدماء التي زعموها القوة الدافعة في انتشار دعوة المجتمع المسلم إلى الهدى ودين الحق، حتى عمّت المعمور من الأرض في أقصر زمن، لا يعرف المجتمع البشري مثله لدعوة من الدعوات أو لرسالة من الرسالات الإلهية.

وقد كان هؤلاء المتخاذلون تحت ستار التسامح الذليل، والترفع المصطنع عن العصبية أبشع وأعضل ما حورب به المجتمع المسلم؛ لأنهم بدعاواهم المتخاذلة كانوا كحفّاري القبور للأحياء قبل أن يموتوا.

وقد عزز افتراءاتهم المتخاذلة بدعوى التسامح أن المجتمع المسلم كان يئن تحت كابوس الجهل المطبق الذي طحن برحاه الفكر المسلم، واستبدل به أضغاثًا من الأساطير والخرافات والأباطيل التي أُلصقت بمنهج المجتمع المسلم إلصاقًا، وعاش في ظلماتها قرونًا كثيرة، وهي لا تزال تسيطر على جماهيره، بل على كثير ممن يزعم أنه من أهل العلم في أوطان هذا المجتمع

المستعبد في تفكيره وأوضاعه الاجتماعية والسياسية والتربوية السلوكية، وهو يرى في فرية التسامح المتخاذل صورة برّاقة، يحيا في ظل ذلِّها وهوانها، يتجرع كأس الموت من أيدي هؤلاء المتخاذلين المخدوعين من أبنائه المزوِّرين عليه.

ولا ندري كيف يُطلب من مجتمع لا يملك من أمر الحياة شيئًا إلا صكّ استعباده المضروب عليه من أعدائه أن يتسامح مع مَن يملك عليه أنفاسه في حياته؟! فيم يتسامح العبد مع سيده المتجبر في استعباده، وهو لا يترك له شيئًا من مقومات إنسانية إلا سلبها منه؟!

ألا يستحي هؤلاء المتخاذلون حين يتكلمون في شأن تسامح المجتمع المسلم مع المجتمعات الأخرى في جبروتها وقوتها الماديّة وطغيانها السلوكي، وحطِّ أثقالها على صدر المجتمع المسلم ليكتموا أنفاسه حتى لا يصحو من رقدته.

الأعداء يستخدمون الشباب لتبقى الأمة غافلة:

وأصحاب هذه الدعاوى الكاذبة وأنصارهم من دعاة التسامح الذليل المتخاذل يخافون أشد الخوف أن يستيقظ المجتمع المسلم من رقدته، ويصحو من غفلته، ويراجع تاريخه ومنهجه في أيام عزّته وقوته ووحدته، فيصحح تركيبه الاجتماعي على أسس المؤاخاة التكافلية، ويستعيد وحدته، ويندفع مرة أخرى في سبيل نشر دعوته، دعوة الحق والهدى والنور، ويمضي في تبليغ رسالته

على منهجي العقيدة والفكر الاجتماعي والتربوي السلوكي، فلم يجدوا ألين عجينة من الشباب المخدوع برغائبه الشهوية في هذا المجتمع المسلم المتدفق بجموعه على جامعاتهم، ينشد منها خصائص حياة جديدة، يعيش فيها لإشباع رغائبه الشهوية المترفة بعد مسغبة الغرائز وجوعها، لينسى تاريخ منهجه الذي قامت على أسسه حياة مجتمعه ويعود إلى أوطانه المسلمة مسخًا للتقدمية الداعرة، ليشكل مناهجها الدراسية وبرامجها التعليمية في صور براقة بالمظاهر المادية التي تسيطر على عقول الجماهير ولا سيما الشباب، فينغمس فيها، أو بالأحرى يغرق في فتونها وآثامها، وهذا هو الذي قد كان، وهو الكائن اليوم، وهذا هو الذي يجب على المجتمع المسلم في جميع أوطانه أن يبادر مسرعًا إلى مقاومته ووقف تياره الجارف لإنقاذ شباب الإسلام من هاوية.

ما الذي يحتاج شبابنا أن يتعلموه في الخارج:

إنني لست ضد بعث الشباب إلى جامعات العالم المتجدِّد التفكير في الحياة والكون، لكشف أسرار الطبيعة ومظاهرها، والتعرف على ما في عناصرها من مكوِّنات إلهية، أبدعها الله تعالى، وسخّرها للإنسان، لتكون آيات بينات على اقتدار خالقها ومكوِّنها، وليفيد منها الإنسان في حياته العقلية والروحية والمادية؛ لأن هذا أصل من أصول ديننا وعنصر من عناصر منهجنا التربوي السلوكي.

ولكنـــي أرى ألا يُدْفع بشــباب الإِســلام إلى مجتمعات ليســت لها حوافــظ اجتماعية تتلاءم مع نشــأة شــبابنا ومنهجه في حياته الإِســلامية قبل أن يحصَّن هذا الشــباب بما يحميه من الانحرافات الخلقية والإِلحادية، ويصون عقيدته وتفكيره، ويعلي سلوكه.

ومــن ثَــمّ كان مــن الواجب أن يســبق بعث الشــباب إلى خارج أوطانه الإِسلامية تحصينه خلقيًا وفكريًا واجتماعيًا، ليكون أينما ذهب صورة ناطقة لمنهجه الإِسلامي في خُلقه وتفكيره، ومعالمه الذاتية ومعارفه، وتاريخه وتربيته وســلوكه، وليس هذا التحصين كوبًا من الشــراب اللذيذ يُقدّم للشــباب فيشربه متمتعًا بحلاوته، متلذذًا بمذاقه، متنعمًا بهناءته ومراءته، وإنما هو تحويل لمسيرة حياة الشــباب تحويلاً يجعل منه نمطًا لمنهج الإِسلام في مقوِّماته وخصائصه وقوته الروحية والمادية واستقامته السلوكية.

وهذا بلا شــك عمل شــاق، محفوف بالمعوقات التي لا يذللها إلا العزائــم المرهفة الماضية التي لا تتــردد، فهو عمل يحتاج إلى تخطيط ووضع منهج تربوي، يشــمل جميــع مراحل التعليم، بل يجب أن يرتبط بالبيت والأســرة حتى يتوحد المنهج التربوي في مراحل حياة الشــباب من البيت مدرســة الأســرة إلــى أن يصل إلى الجامعة والدراسات المتخصِّصة ومراقبة البعوث الخارجية.

ولمــا كان هــذا التخطيــط في وضعــه العملي يحتــاج إلى زمن طويل، ويحتاج إلى دراسة تربوية ومناهج دراسية، وإلى نوع ممتاز

من الأساتذة، لهم اختصاصهم التربوي وخصائصهم الشخصية مما يجب أن يعتمد على دراسة المنهج النبوي بروحه وفكرته وتطبيقه في واقع الحياة، والتكيّف بحقائقه عمليًا مع قدر كبير من التلطّف والترفق في الاتصالات الواعية بالشباب ومراقبة سلوكه داخل دور التعليم وخارجها مع الاعتصام بمراقبة الله الذي يعلم السر وأخفى.

لما كان ذلك من الواجب الفوري كان علينا أن نبحث عن البديل الذي لا يعوق دراسة الشباب انتظارًا لهذا التخطيط حتى يثمر ثمرته المرجوة منه.

وهذا البديل نقدمه برأينا فيما يلي: إن الله تعالى مكّن كثيرًا من أوطان الإسلام بإمكانات مادية هائلة يستطيع بها هؤلاء الممكّنون أن يسلكوا في تعليم الشباب ما يسلكونه في استجلاب خبراء المشروعات العمرانية المادية في الصناعات والزراعات، وشق الطرق وتمهيدها وتشييد المباني الضخمة من ناطحات السحاب وغيرها، بأن يستقدموا من العلماء مَن يحتاج إليهم المجتمع المسلم في تعليم شبابه على أرض وطنه، ويعدوا لهؤلاء العلماء من وسائل الراحة الكاملة ما كانوا يجدونه في بلادهم، ويستطيعون أن يكافئوهم بمرتبات مجزية تتعادل مع تضحياتهم بمفارقة أوطانهم وما يبذلون من جهد في تعليم شبابنا العلوم التي تنهض بالمجتمع المسلم من الفنون الكونية والصناعات الدقيقة في ظل الرقابة الواعية المؤمنة من القائمين على رعاية الحياة في الأمة.

علوم الإسلام ولغته العربية في أشد الحاجة إلى مؤسسة تجمع التراث وتدرسه:

والشباب المسلم لا يحتاج إلى أن يأخذ علوم الإسلام ومعارفه، وفنون اللغة العربية وآدابها من خارج أوطانه المسلمة؛ لأن هذه العلوم والمعارف هي تراث الإسلام ولغته، وهي بين يديه وتحت سمعه وبصره في مكتبات الأوطان الإسلامية، لكنها تحتاج إلى إنشاء مؤسسة كبرى، تنهض بعبء جمع التراث الإسلامي وتحقيقه وتنقيته من الأساطير والخرافات والأكاذيب الإسرائيلية، والأباطيل الوثنية التي أُدخلت على معارف الإسلام في غفلة المجتمع المسلم، لتنشر هذا التراث بين المجتمعات الإسلامية بأفضل طرائق النشر طباعة وتصحيحًا وتحقيقًا، ليكون هذا النشر أقوى سند للدعوة إلى الله، وتبليغ رسالاته.

والشباب المسلم يحتاج إلى من يتخصص من أفراده في علوم الحياة، وفنون الطبيعة، والمعارف الكونية وغيرها مما تنهض بالمجتمع المسلم من كبوته ليلحق بقافلة الحياة الفكرية، وهذه العلوم والمعارف كان للمجتمع المسلم فيها مجالات ضاعت منه آثارها فيما ضاع له من أوطان وآثار، وهي علوم إنسانية لا وطن لها، ولا اختصاص لها بجيل أو مجتمع؛ لأن العلم حق مشاع للإنسانية كلِّها، لا وطن له، يأخذه مَن يتأهل لأخذه بوسائله الفكرية والمادّية والعمليّة.

للفكــر المســلم شــعار ينطبــق أول مــا ينطبــق علــى العلــوم والمعــارف، ذلك الشــعار المنهجي النبيل هــو الحكمة المعروفة (الحكمة ضالــة المؤمن يأخذها أنّى وجدهــا) ولكن ذلك يحتاج إلى خبرة لمّاحة تحســن الاختيار بقدر المســتطاع، والله تعالى من وراء القصد.

فهــل يســمع الممكَّنون من الوســائل في أوطان الإِســلام لهذه الدعوة بإِخلاص وصبر ودراسة، ويتخففون من الشعارات الدعائية فــي صورهــا وأشــكالها وألوانها الخادعــة، ويوجهــون المجتمع المسلم إلى العمل الصامت الدءوب فيما يحتاج إليه من صناعات دقيقة ليســتخرج بها كنوز أرضه، ويحررها من أيدي أعدائه؟ لعل وعســى وليســمع القائمون على أمور المجتمع المســلم ورعايته المسئولة أمام الله العلي العظيم قوله -تعالى-: ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (الزمر: ٧)

❀ ❀ ❀

هذه نصيحة ممن لا يملك إلا الكلمة:

هذه نفثة غَيْران، لا يملك إلا الكلمة يضعها بين يدي القادرين الذين يملكون أن يحوّلوها إلى عمل جادّ مسدّد من قادة المجتمع المســلم الممكّنين فــي الأرض، وقد يراها المتعجِّلــون ضربًا من

الخيـال، ولكنهـا فكرة فيها مجـال لبدء عمل جاد قوي شـامل، يجمـع شـمل المجتمع المسـلم ويصحِّـح تركيبـه الاجتماعي، وما علـى الممكَّنيـن المالكين للوسـائل إلا أن يبـدءوا ويمكنوا المؤهَّليـن للعمـل منـه، تحت رقابة تحاسـب وتشـجع، وتعطي وتمنـع، حتـى يكون العمل منـه حقيقة واقعة في حيـاة المجتمع المسـلم، ولا يضـر قادة هـذا المجتمع الممكَّنيـن أن يطول بهم الزمن على ظهور النتائـج؛ لأن أعمار الأمم والمجتمعات لا تُقاس بالأيام والشـهور، بل ولا بالأعوام والدهور، ولكنها تُقاس بما يقع فيها من أعمال، وللمجتمع المسلم نموذجه في انتشار دعوته إلى الله، لهداية الخلق وتحرير الأمم والشـعوب من الوثنيات في شتى صورها وأشكالها.

وليفهـم قـادة المجتمع المسـلم في جميع أوطان الإسـلام أن الإسـلام ديـن الله، أنزله على عبده ورسـوله محمد ﷺ، وقد وعد بإظهـاره علـى الدين كله، وهو سـبحانه لا يخلـف الميعاد، وهو الفعّال لما يشـاء، والخلق كلهم عيال الله وعباده، يُجري ما يشاء على يد مَن شاء منهم، لا تقيد إرادته بجنس من الناس ولا لون ولا جيـل ولا زمن ولا مـكان، ولا فرد أو جماعة، وإنمـا ينصر الله مَن ينصره كائنًا من كان.

فليتقدم صاحب الخطوة العظمى أينما كان في أرض الإسـلام، وليأخذ زمام مسـيرة إصلاح المجتمع المسـلم الاجتماعي ليضعه

على النقطة الأولى من الخط المستقيم على أساس المنهج النبوي، وكل إصلاح لا يقوم على أساس هذا المنهج النبوي إنما هو قعقعة دعائية فاسدة، سيكشفها الله ويبطلها؛ لأن الله لا يصلح عمل المفسدين.

وليحرص الممكَّنون في الأرض من قادة المجتمع المسلم على إصلاح الشباب أشدّ الحرص؛ لأن الشباب عصب حياة المجتمع المسلم، ومن الشباب ينبغي أن يبدأ الإِصلاح الفكري والاجتماعي، لتغير هذه المناهج التعليمية في مؤسسات الدراسة، وتوضع مكانها مناهج إسلامية تستمد روحها وقوتها وصلاحيتها من المنهج النبوي الذي قام على دعائمه بناء المجتمع المسلم في قيادة الإِنسانية ونشر الهداية وتبليغ الرسالة، والله لا يضيع أجر مَن أحسن عملاً.

❀ ❀ ❀

جهاد القتال في المنهج النبوي لم يكن وسيلة لنشر الدعوة إلى الله وإنما كان علاجا لمرض فجور الكفر:

إننا بهذا العرض المسهب بسوق النصوص والبراهين القولية والعملية الدالة على أن جهاد القتال في منهج المجتمع المسلم لم يكن قط قاعدة من قواعد نشر الدعوة إلى الله وتبليغ الرسالة الخالدة، رسالة الإِسلام -وإنما كان علاجًا لمرض فجور الكفر وعتو العناد المستكبر عند المشركين والوثنيين الماديين، بعد

اليأس من الشفاء بالحجة البيّنة، والبيان المنير، وبعد عرض الموادعة بالجزية للتأمل والنظر في الدلائل الهادية إلى الحق، أو المهادنة بالعهود الموقوتة التي تكتفي من المعاهدين بألّا يحاربوا المجتمع المسلم، ولا يُعينوا عليه، ولا يظاهروا عدوًا له، كما وقع في موادعة بني ضَمْرة وبني مُدْلج في أول خرجات رسول الله ﷺ لتلقِّي عير قريش وتجارتها، وهي ذاهبة إلى الشام وقادمة منه، رجاء يقظة عقل الفجرة من المشركين الوثنيين من غفوته، ليستبين راشدًا سبيل المؤمنين -مهَّدْنا(١٠) لاستعراض بعض غزوات النبي ﷺ الكبرى، ببيان أسبابها المباشرة وأحداثها الهامة، ووقائعها الفاصلة، لنظهر ما انطوت عليه صحائفها من حكمة بالغة وسياسة حكيمة، وعدالة ممزوجة بالرحمة، وقوة مظاهر المؤاخاة ورسوخ في الإيمان الموحِّد لعناصر المجتمع المسلم، وثبات في مجال الاستشهاد، وحب للموت في سبيل إعلاء كلمة الله وتبليغ رسالته إلى العالمين.

المنهج النبوي دليل قاطع على أن جهاد القتال كان دفاعيا:

وبهذا البيان وضعنا معالم المسير بالدعوة إلى الله على طريق الجهاد، ذلك المنهج النبوي الذي توخاه الراشدون في وصاياهم لقواد جيوشهم وكتائب فتوحاتهم في أرجاء الأرض، والذي تأسَّى

(١٠) هذا خبر (إن) الواردة في أول الفقرة. (المجلة)

به الأمراء الصالحون، وولاة العمل في الولايات في سلوكهم لتبليغ رسالات الله وما نزل من الحق لهداية الإنسانية أينما كانت في مشارق الأرض ومغاربها.

فكانوا -إذْ كان المنهج النبوي نبراسهم- لا يقاتلون إلا مَن قاتلهم، ولا يهيجون إلا مَن نصب لهم الحرب، ولا يزعجون الآمنين في أسرابهم الذين كفُّوا أيديهم عن القتال وصانوا أنفسهم عن مطامع العداوة والبغي للمجتمع المسلم، ولا يفاجئون قبل الدعوة إلى الله وطلب المهادنة إلا مَن عرفوا أنه لا سبيل إلى موادعته ومهادنته، وعلموا أنه يعدّ لهم الحرب والقتال متدسِّسًا وراء أغطية المكر والغرور.

ومنهج النبوة لا يؤخذ بضلالات مَن ضلّ عن طريقه، ولا يحكم عليه بأوضاع مَن لم يحكِّمه في حياته.

وفي ظل هداية المنهج النبوي ومعالمه نسوق الحديث في هذه الغزوات النبوية التي نخصصها في اختيارها بالبحث، باعتبارها نماذج لأظهر الوقائع التطبيقية لهذا المنهج النبوي في مجال الجهاد، وهو المجال الذي يعتمد أكثر ما يعتمد على قوة المؤاخاة بين عناصر المجتمع المسلم، تلك المؤاخاة التي كانت وظلت وستظل هي القوة الأولى في مواقف المجتمع المسلم الجهادية، بقطع النظر عن قلة عدد المجتمع المسلم أمام أعداد أعدائه، إلى أن تمكَّنت المجتمعات الوثنية المادية الملحدة القديمة والحديثة

ـ بعد قرون من قيام المجتمع المسلم في تركيبه المتآخي فتحت فيها إفريقية وفارس كلها، والأندلس، وحررت مصر من نير الرومان، وفتحت جزر البحر المتوسط، وأواسط أوروبا، والهند والسند والصين، وإندونيسيا وما حولها ـ من وقف تيار المد الإسلامي واندفاع المجتمع المسلم في مسيرته لتبليغ الرسالة الخالدة الخاتمة.

الإمام السهيلي يروي من حقائق التاريخ ما تحقق من عمل:

يقول السهيلي في (الروض) وهو يبحث عن التولِّي يوم الزحف وقوله: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ ﴾ (الأنفال: ٦٦): يدل على أن ثَمَّ حكمًا منسوخًا وهو الثبوت للعشرة، فإذن للآية ظهرٌ وبطنٌ، فظاهرها خبر ووعد من الله تعالى أن تغلب العشرةُ المئةَ، ويدل على هذا الحكم قوله: ﴿ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾ (الأنفال: ٦٥) فتعلق النسخ بهذا الحكم الباطن، وبقي الخبر وعدًا حقًا، قد أبصره المؤمنون عيانًا في زمن عمر بن الخطاب، وفي بقية خلافة أبي بكر في محاربة الروم وفارس بالعراق وبالشام، ففي تلك الملاحم هزمت المئون الآلاف من المشركين، وقد هزم خالد بن الوليد مئة ألف حين إقباله من العراق إلى الشام، ولم يبلغ عسكره خمسة آلاف، بل قد رأيت في بعض فتوح الشام أنه كان يومئذ في ألف فارس، وكان قد أقبل من العراق مددًا للمسلمين الذين بالشام، وكان الروم في أربع مئة ألف، فلقي منهم خالد مئة ألف، ففضّ جمعهم وهزمهم، وقد هزم أهل القادسية جيوش رستم

وقتلوه، وكان رستم في أكثر من مئتي ألف، ولم يكن المسلمون في عُشر ذلك العدد، وجاءوا -أي الفرس- معهم بالفِيَلة أمثال الحصون عليها الرجال، ففَّرت الفِيَلة وأطاحت ما عليها ولم يردها شيء دون البلد الذي خرجت منه، وكذلك ما ظهر من فتح الله ونصره على يدي موسى بن نصير بإفريقية والأندلس، فقد كان في ذلك أعجب العجب، فكان وعد الله مفعولاً ونصرُه للمسلمين ناجزًا، والحمد لله.

وكل ذلك وغيره من الفتوحات ونشر الدعوة إلى الله إنما تم على أساس المؤاخاة التكافلية، وعملها الإيجابي في جعل المجتمع المسلم قوةً لا تقهره قوة مهما عظم عددها وعدتها، إلى أن تمكنت مجتمعات الوثنية الملحدة من حل عواصمها الموحِّدة لعناصر المجتمع المسلم بما بثته في أرجائه من انحلال خلقي، وجمود فكري، وانطلاق مع الرغائب الشهوية الهابطة، وإخلاد إلى حب الدنيا، فانحلَّت روابط هذه المؤاخاة، وتفرقت كلمة المجتمع المسلم، ومُزّق شمله شذر مذر، وذهبت معالم قوته مع ذهاب عواصم مؤاخاته.

هذا هو واقع المجتمع المسلم اليوم وهو يغطِّي تحت جلده بثور الفساد تنخر في عظامه، ودمامل الانحلال تحوِّل دماءه إلى صديد، يتجرعه في صور خادعة من الشهوات الحضارية المستوردة تقتل في الشباب حميته ورجوليته، فأنّى، وكيف، ومتى يئوب الحق إلى منازله، ويصحو المجتمع المسلم من رقدته،

ويفيق من تخديره؟ أبهذه الخطب الرنّانة المحفوظة، والأحاديث الطنّانة التي يُستَهْلك بها ما بقي لهذا المجتمع من وعي يوشك أن يكــون صرخة داوية لا يرد صداها آفاقُ التقدمية العصرية، أم بهذه الشــعارات الدعائية فــي الصحافة والإذاعات والتلفــزة والندوات والمؤتمرات التي تعقد لتنفضَّ لغير شيء.

هــذا هو المحال الــذي ليس وراءه ولا فوقه محــال، إنما يئوب الحق إلى منازله بوســائله التي أقامته في نشــأته شــامخًا، وأحاطته بدعائــم المؤاخاة فــي الله، ولله، فانتصَــرَّ وعمَّ قهــرُه للطغاة، وردَّ كيدَهم في نحورهم.

فــإذا اســتطاع المجتمــع المســلم فــي حاضــره أن يعــدّ القوة المرهبــة لأعــداء الله وأعدائه إعــدادًا ذاتيًا ينبع مــن روحه وثرواته التــي لا تنفد، وتفكيــره الذي لا ينضب، عندئــذ فقط يعود الحق إلى منازلــه، وتعود العزّة والكرامة والحريــة إلى هذا المجتمع إذا اعتصم بالمنهج النبوي في تربيته وسلوكه.

هذه هي سبيل أوبة الحق إلى منازله لمن أراد أن يعمل كما عمل رسول الله ﷺ وأصحابه من بعده وكما عمل المجتمع المسلم من بعدهم.

غزوات النبي ﷺ متأسَّى لكتائب الجهاد في أمته من بعده:

ومــن هنــا كانت غزوات رســول الله ﷺ بأصحابه على أســاس منهجــه علــى قلة العدد وضعف العــدة مُثلًا مضروبــة، في الجهاد

لإعلاء كلمة الله الــذي تمّت به أعظم الفتوحات المادية والروحية والفكرية والاجتماعية والتربوية السلوكية.

لقــد عرف المجتمع المســلم الجّد الصــارم إذْ كانت المؤاخاة التكافليــة حقيقــة واقعــة، ومــا يريد به أعــداؤه يــوم أن نفض عن كاهلــه غبار الذلّة والمهانة، وقرر أن يعود إلى منهجه في المؤاخاة التكافليــة، بعد أن خدعتــه الوثنيات الملحدة، فأنســته بإلحادها وفجورها هذا المنهج وباعدت بينه وبينه، فأفقدته دعائم مؤاخاته التــي هي في الحقيقة القوة الأساســية لوجوده عزيــزًا كريمًا على الحياة وعلى نفســه ومنهجه، وهي قوته الأولــى في مجال الجهاد لإعلاء كلمة الله.

عــرف ذلك المجتمع المســلم يوم أن وقف فــي وجه الزحوف التتارية الجارفة المُدَمْدِمة، بقيادة رجل لا يعرف التاريخُ له جنسًــا مشهَّرًا من أجناس البشرية نماه إليه، ولكنه عرفه ويعرفه بأنه بطل المجتمع المســلم الــذي عانقت وقائعه الجهاديــة وقائع خالد بن الوليد وســعد بن أبي وقاص، وأبي عبيدة، في القضاء على جحافل التتار المتوحشة في غاراتها، المدمِّرة لكل ما يقف أمامها من بشر أو شيء.

تأسى بها بطل الإسلام قطز في جهاده ضد التتار:

هذا البطل المسلم الذي خلَّد التاريخ ذكره في أضوأ صحفه أخذ بزمام المجتمع المســلم فقاده في المعركة الفاصلة باسم الإسلام

في ظل المؤاخاة التكافلية التي أقام عليها رسـول الله ﷺ تركيب المجتمع المسـلم الاجتماعي فكان بها قوة موحدّة لا تُقهر ، فلما عاد المجتمع المسـلم إلى الاعتصام بهـذه المؤاخاة رُدّت إليه قوة وحدتـه الإيمانيـة ، فهزم التتار هزيمـة منكرة لم تقـم لهم بعدها قائمة ، ومزّق جحافلهم شـرّ ممزّق ؛ لأنه مرّ على عزيمته قدمًا ، لم تخدعـه انتصارات الجولة فيتوقـف ، ولكنه أتبع الضربة ضربات ، حتـى بلغ بالمعركة مداها ، فأنهاها بالنصر المؤزَّر الذي رفع شـأن المجتمع المسـلم ، وأعاد إليـه تركيبه الاجتماعـي الموحّد بقوة الإيمان في ظل المؤاخاة ؛ لأنه سمع منهج المجتمع المسلم يقول فـي المواقـف الحاسـمة : ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (الأنفال : ٥٧) .

والمعنـى أن الله تعالى يقول لرسـوله محمد ﷺ في صدر إقامة منهجه الجهادي : فإن ظفرت بأعدائك وأعداء مجتمعك المسلم ، وتمكنـت منهم في حال الحرب فاضربهم الضربة الحاسـمة التي تفرق جمعهم ، ويسـمَع دويَّها مَن وراءهم من أعداء الحق والهدى المتربصيـن بك الدوائر ، فيركبهم الرعب والذعر ، ويملأ قلوبهم الهلـعُ والخـورُ والجبنُ ، فيتفرقـون أيادي سـبأ(١١) ، ويذهبون في الأرض كل مذهـب ، فلا يجتمعون لك بعد هذه الضربة الحاسـمة أبدًا ، ولا تحدثنَّ نفسـك بما يفتّ في عضد مجتمعك من هدنة أو

(١١) يقولون ذهبوا أيادي سبأ أي تفرقوا في كل وجه. (المجلة)

موادعة أو رهبة من حليف لأعدائك متستر بالنفاق السياسي، بل امضِ على عزيمتك، فالنصر بيدنا وقوتنا، ومهما كانت قوتهم المادية، فقد نجعلها عليهم ونردها في صدورهم ونهلكهم بها:

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ (الأنفال: ٦٢ - ٦٥).

يقول جل شأنه: إن هؤلاء الأعداء لك ولمجتمعك المسلم هم والمتسترون وراءهم المتربصون بكم هم في عداوتهم لكم على سواء، فإن أرادوا أن يخدعوك بأساليب النفاق ومعسول القول فلا تبال بخديعتهم فالله كافيك شأنهم وشأنَ مَكرهم السيئ، فهو الذي أيدك ونصرك بسابق فضله عليك وعلى المؤمنين معك، كما أيدك بهم، وهم الذين أحيت بينهم مواخاة التكافل التي جمعت قواهم فوحَّدتها في ظل الإيمان، ولولا فضل الله عليك وعليهم ما تمكنت من تأليف قلوبهم بعد الذي كان بينهم من العداوة الجاهلية والبغضاء العصبية، ولو أنفقت ما في الأرض جميعًا من مال وزخرف ومتاع، ولكن الله الذي بيده مقاليد الأمور كلها، وبيده قلوب العباد يصرِّفها كيف يشاء هو الذي ألَّف بينهم

بالمؤاخاة التي أمرناك بعقدها بينهم، فكانت حصنًا لكم لا يرام اقتحامه ما دام قائم الدعائم؛ لأن الله الذي ألَّف بين هذه القلوب المتنافرة عزيز لا يغالب، حكيم لا تفوته ذرة من مصالح عباده، وقد كانت المؤاخاة بين عناصر مجتمعك مظهرًا من أعظم وأبدع مظاهر وبدائع حكمته وتدبيره لك ولأمتك ومجتمعك المسلم.

صلاح الدين تأسى بالمنهج النبوي فقضى على الجموع الصليبية:

وعرف المجتمع المسلم الجدّ الصارم مرة أخرى، يوم أن عاد بعد غفلة إلى منهجه النبوي في ظل المؤاخاة التكافلية يوم أن وقف في وجه الزحوف الصليبية المتكالبة المتألبة على المجتمع، المجمَّعة من جميع بلاد أوربا يسوقها الحقد الكفور على المجتمع المسلم الذي أظلَّهم برحمته وسماحته؛ لتسحقه وتنتزع من يده ثالث الحرمين وأولى القبلتين، ومسرى رسول الله ﷺ، ومبدأ معراجه إلى حظائر القرب حيث سمع صريف الأقلام، فما زاغ البصر منه وما طغى، وكانت هذه المقاومة بقيادة رجل لم يدّع التاريخ له نسبًا عربيًا، ولكنه عرفه في صحائفه بأشرف وأنبل وأقوى وأعظم البطولات التي ربّاها المجتمع المسلم بمنهجه التربوي السلوكي.

ذلك البطل هو الفحل لا يقدع أنفه(١٢)، ولا ترام منزلته إلا في الخوالد الخالدية صلاح الدين الأيوبي الكردي أرومةً، المصريّ

---

(١٢) يقولون هو الفحل لا يقدع أنفه: بمعنى هو الكريم الذي لا يمنع عما يطلب. (المجلة)

الشـامّي نشـأة وملكًا وخلودًا، أحد الراشـدين من ملوك الإسـلام وقـادة المجتمع المسـلم الذي وقف أمام زحـف الصليبيين طوال أيـام حياتـه. لا يسـأمُ الجهـادَ، ولا يمـلّ القتال لإعـلاء كلمة الله وكلمة الحق الإلهي، لم يهادن ولم يداهن، ومضى معتصمًا بمنهج النبوة لا يتردد، ولا يتوقف ولا يرهب أحدًا إلا الله تعالى، حتى هزم جمـوع الصليبية الحاقدة المغرورة بكثـرة أعدادها المتعزِّزة بقوة عُدتها، هزيمة رعبلت حشـودها(١٣)، وأذلّـت تَعظُّمَها وغرورها، وأسـر قوادهـا وملوكها ثم عفـا عنهم فأطلقهم بعـد أن حرّر بيت المقـدس من رجسـهم وبعد أن خاض إلى حربهـم أنهرًا من الدماء المسلمة التي سـفكها أولئك الفجرة المتعصبون، وجاد بها جند المجتمع المسـلم فجادوا بأرواحهم ثمنًا لإحيـاء المنهج النبوي في الدعوة إلى الله، وحماية كرامة المجتمع المسلم، وإحياء عزته وإعادة كرامته.

غزوات رسول الله ﷺ رحلات هداية:

إن المنهـج النبوي فـي قواعـده وأصوله، ووصايـاه للقيادات الجهادية التي طبقته أحسـن تطبيق، تأسـيًا بالنبي ﷺ في غزواته الهادية الداعية إلى الله، المبلِّغة رسالاته إلى العالمين جعل من هذه السفرات التي عرفت في التاريخ باسم الغزوات، تبيانًا لمضمونها مـن القصد الذي ينـأى بها عن العبـث والمغالبـات الظالمة التي

(١٣) المعنى شتت جموعها، وأصل ذلك قولهم: رعبلت اللحم أي قطعته قطعا صغارًا. (المجلة)

كانت تبعث الحروب وتسودها في جميع العصور الجاهلية الإنسانية رحلات هداية وتطهير للبشرية من رجس الشرك وأوضار الوثنيّات الماديّة ومظالمها، ولم يجعلها قط إغارات نهب وسلب تسفك فيها دماء الآمنين، وتُسبى نساؤهم، وتُستعبد ذراريهم بالظلم والقهر اللذين كانت تُسامهما البشرية سعيرًا من طغاة المشركين، وفجار الوثنيات المتلونة في ألوان وصور فكرية واجتماعية لمحاربة عدل الرسالات الإلهية.

ولم يُعرَف في تاريخ هذه الغزوات الهادية أن رسول الله ﷺ نهض في غزوة قتال، أو عقد لواءِ بعثٍ أو سريةٍ، إلا لمن كان محاربًا له ولمجتمعه المسلم، ولم ينهض ﷺ في غزوة من غزواته داعيًا إلى الله مبلِّغًا رسالة ربه فقاتل، إلا بعد أن يبذل أقصى الجهد في بيان الدعوة أولًا ثم الموادعة بالجزية، أو المهادنة بالعهد ثانيًا وبعد أن يستنفد كل وسيلة يمكن بها اتقاء القتال ثم يقاتل إن قوتل.

الهجرة النبوية حد فاصل بين الكفاح الصبور والعدل المنصف:

والمعروف أن الهجرة النبوية كانت الحد الفاصل بين مرحلتين في حياة المجتمع المسلم، المرحلة الأولى هي المرحلة المكية التي أوضحنا موقف المجتمع المسلم فيها على قلة عدده وضعف عدته وعجزه عن الدفاع عن نفسه من طغيان أعدائه في كثرتهم وفجور عتوهم، وشراسة عنادهم، وبيّنّا أن هذه المرحلة

كانت مرحلة تمحيص للمؤمنين وإلزام لهم بالصبر والمصابرة، واحتمال الأذى وتصاريف البلاء وصنوف المحن، مع الأمر بالعفو والصفح والغفران، ومقابلة الإساءة بالإحسان، والتغاضي عن سفاهة السفهاء، وكان الصحابة يأتون النبي ﷺ من بين مشجوج ومضروب، يشكون إليه حالهم، ويطلبون منه أن يأذن لهم في ردِّ العدوان، وقتل من يستطيعون قتله من المعتدين، فيأمرهم بالصبر ويقول لهم: «اصبروا فإني لم أومر بالقتال».

شواهد على صبر الصحابة قبل الإذن لهم بالنصفة من أعدائهم:

وفي حديث خبّاب بن الأرت رضي الله عنه عند البخاري قال: أتيت النبي ﷺ وهو متوسّد ببردة، وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة فقلت: ألا تدعو الله؟ فقعد وهو محمر وجهه فقال: «قد كان من كان قبلكم ليُمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق ما يصرفه ذلك عن دينه، ولَيُتِمَّنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله عز وجل والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»، وفي حديث آخر عند البيهقي ومسلم والنسائي يقول خباب رضي الله عنه: «شكونا إلى رسول الله ﷺ حر الرمضاء في وجوهنا وأكفِّنا فلم يُشكنا»(١٤).

---

(١٤) أشكاه أعانه وأزال عنه ما يشكو منه. (المجلة)

قال ابن كثير في (البداية والنهاية): والذي يقع لي -والله أعلم- أن هذا الحديث مختصر من الأول، وهو أنهم شكوا إليه ﷺ ما يلقون من المشركين من التعذيب بحرّ الرمضاء، وأنهم يسحبونهم على وجوههم فيتقون بأكفهم، وغير ذلك من أنواع العذاب، وسألوا رسول الله ﷺ أن يدعو الله لهم على المشركين أو يستنصر لهم، فوعدهم ذلك ولم ينجزه لهم في الحالة الراهنة، وأخبرهم عمّن كان قبلهم أنهم يلقون من العذاب ما هو أشد مما أصابهم ولا يصرفهم ذلك عن دينهم، ويبشرهم أن الله سيتم هذا الأمر ويظهره، ويعلنه وينصره، وينشره في الآفاق.

وفي حديث كعب بن مالك في بيعة العقبة الكبرى أن النبي ﷺ قال للأنصار بعد إتمام البيعة وردِّه على صرخة الشيطان: «ارفضُّوا إلى رحالكم»(١٥) فقال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلنَّ على أهل مِنًى بأسيافنا، فقال رسول الله ﷺ: «لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم»، قال كعب: فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا فيها حتى أصبحنا، فلما أصبحنا غدت علينا جلّة قريش حتى جاءونا في منازلنا، فقالوا: يا معشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا،

(١٥) ارْفَضُّوا أي تفرقوا. (المجلة)

وإنـه والله مـا من حي من العرب أبغضُ إلينا من أن تنشـب الحرب بيننا وبينهم منكم.

البيعة الكبرى للأنصار كانت بداية النهاية في مرحلة الصبر:

وقـد كانـت هـذه البَيْعـة الكبـرى التي تمـت بيـن النبي ﷺ والوافديـن مـن الخـزرج والأوس، فـي سـبعين رجلًا بدايـة نهاية المرحلة المكية، أحسّ فيها طواغيت قريش بسعير الحرب يلفح وجوههم مع قوم هم أهيب في صدورهم وأرعب لقلوبهم أن تنشب بينهـم وبينهم الحرب، فسُـقط فـي أيديهم ورأوا أنهـم قد ضلُّوا الطريق، فلا إلى الهدى سـلكوا فسـلموا وعـزّوا بعزة الإيمان بما جاءهم من الحق، كما عزّ هؤلاء الأنصار الذين يخشـونهم أشدَّ من خشية أي عدو لهم، ولا إلى قوة قادرة على مواجهة هؤلاء البهاليل بقية السـيف أخلـدوا، ولا إلى ركن شـديد أووا وركنوا، ولكنهم لفجـور عنادهـم لجُّـوا فـي طغيانهـم يعمهـون، ورضُـوا بالدنايا يحملون عارها وآثامها، رضُوا بأن يكونوا مناسـر نَهْب، ولصوص سـلب لأمـوال المهاجرين، يقتسـمونها فيما بينهم، فقد سـلبوا ثـروة صهيب رضـي الله عنه، واغتصبوا أموالـه ثمنًا لتركه يمضي في هجرته، ويلحق برعيله إلى المدينة المنورة، ونهبوا أموال بني

جحـش الذين أوعبوا في الهجرة[١٦]، فلم يبق بمكة ديّار، وتركوا وراء ظهورهم منازلهم وثرواتهم فسـطا عليها أبو سـفيان وباعها، وسلبوا الكثير من سـوى ذلك، وجعلوا من هجرة صادقي الإِيمان مجبنـة يُدثِّرون بها ما في قلوبهم من غل حقود على هؤلاء الصفوة مـن طلائع الإِيمان الذين هاجروا وأُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يتطهـروا من أوسـاخ الوثنية وأقذار الشـرك بالتوحيد، وأن الله تعالى هو ربهم لا يعرفون لهم ربًا سواه، وأن يتنظّفوا في ظواهرهم وبواطنهم من جَشَعٍ جبان يدفعهم إلى السطو على ما تركه مالكوه من مال أو متاع، شـروا به أنفسـهم ابتغاء مرضاة الله تعالى، فأربح الله بيعهم، وعوضهم عنه أفضل ما يربح رابح في الدنيا والآخرة.

موقـف المشركين بعـد الهجرة مـن المجتمـع المسلم موقف إعلان الحرب:

كان هـذا الموقـف مـن أحـلاس الشـرك، وطواغيـت الوثنية الفاجرة الحمقاء إعلانًا سـاخرًا للحرب على المجتمع المسـلم، ولـم يكن في ذلـك مفاجـأة لهذا المجتمـع المسـلم، ولا كانت الحرب بينه وبين قريش في عتوِّ طواغيتها وفجور ملئها بعيدة عن تقديره واسـتعداده وتفكيره، ولكنها كانت متوقعة ناشبة، يصلى

(١٦) يقولـون: أوعـب بنو فلان في كـذا: أي فعلوه ولم يبق منهم أحـد ومنها استوعب. (المجلة)

سـعيرها ويبوء بهزيمتها الظالمون، وقد كانت المؤاخاة بنوعيها الفـردي والجماعي بين عناصر المجتمع المسـلم من المهاجرين والأنصـار، ومن لحق بهم فآمن معهـم أول خطوة في الإعداد لهذه الحرب المنتظرة شبوبَ أوارها في كل وقت وحين.

إدخـال اليهـود بالتبعية للأنصـار كان تدبيـرًا سياسيًا حكيما:

وكان من الحكمة السياسـية المؤذنة بتوقع هذه الحرب إدخالُ اليهود بالموادعة فـي كتاب المؤاخاة التكافلية بتبعيتهم للأنصار بيتًا، بيتًا، وطائفة، وطائفة، ليحكمهم سلطان الموادعة وعهدها الدستوري، تأمينًا للمجتمع المسلم من مكرهم وغدرهم، وكانت هذه المؤاخاة هي القوة التي لا يفلُّ سـلاحها، والدعامة الراسـخة التـي لا تخضد شـوكتها ولا تغمز قناتها، وقـد حُلّت بها عواصم التكتـل اليهودي في المدينـة، وتوزعت بها جموعهم إلى طوائف وشيع، ربطت بها كل طائفة أو شيعة من الأنصار على جهة التبعية، فأصبـح اليهود فـي صلفهم وغرورهـم بثرواتهـم تابعين للأنصار بعد أن كانوا متبوعين يأمرون وينهون، وكسـرت شـوكتهم التي كانـوا يتعظَّمون بها بهذه التبعية المذلـة على حلفائهم ومواليهم من الأوس والخزرج الذين شـرفوا بالإسلام، وأصبحوا مع إخوانهم المهاجريـن عنصـرًا موحدًا يمثـل قوة المجتمع المسـلم في ظل

ظليـل من المؤاخـاة التي تحوّلت إلـى إيثار لم تعرف البشـرية له مثيلاً في تاريخها .

تدسس اليهود في الاتصال بقريش لمحاربة المجتمع المسلم:

ولكـن اليهـود قـوم يجري فـي دمائهم الغـدر ، وتسـتحوذ على قلوبهم الخيانة ، ويسـتولي المكر السـيئ على تفكيرهم ، ويحكم إحساسَـهم وشـعورَهم الحقد الأسود ، وقد أحسُّـوا بما أريد أو يراد بهـم من تمزيـق عصبيتهم وفك عرى وحدتهـم بوضعهم التبعي فى كتـاب المؤاخاة التكافلية ، فجبنوا عن المعالنة والمجاهرة ، ولجئوا إلى التدسـس والتخفي والتآمر الخبيـث ، واتصلوا خفية بقريش ألدّ أعداء المجتمع المسـلم ، واتصلت بهم قريش فكاتبتهم وكاتبوها ، وكشـف كل فريق منهم عن دسـيس نفسه بالنسـبة إلى موقفهم من المجتمع المسـلم ، واتفقوا علـى الوقوف فى وجهـه ليوقفوا زحفه الجارف الذي سيكتسـحهم ويقضي عليهم هنا وهناك ، إن لم يقفوا أمامه قوة واحدة ، اليهود بالمكر والتآمر والإرجاف ، وقريش بتحبيش الأحبـاش ، وتجييـش الجيـوش ، وتجميـع المتربصين مـن القبائل الضاربيـن حول مكـة وبطاحها ، وتحريضهم علـى حرب المجتمع المسـلم وقطـع الطـرق عليه في خـارج المدينـة ، وإكسـاد تجارته وتعطيل مصالحه ، ومنع من شاء منهم المرور بمكة حاجًا أو معتمرًا

أو واصــلًا رحمًــا، أو زائر صداقــة، أو قافيًا ضالــة، أو مبتغيًا حاجة، مع ما كان في أيديهم من أموال المهاجرين التي اســتلبوها اغتصابًا، ومزجوها بأموالهم، ليستكثروا بها من ثرواتهم وتجاراتهم.

فــكان هــذا الحصــار للمجتمع المســلم لونًا من الحــرب التي أشعلوا نارها من قبل، وأعلنوها اليوم شعواء لا تُبقي ولا تذر، وزاد من وطأة هذا الحصار الخارجي ما كان من اليهود في داخل المدينة إذْ قبضوا أيديهم عن معاملة الأنصار، وكفوا أنفسهم عن معاطاتهم ليُكسدوا تجارتهم، ويبوّروا ثروتهم.

ورأى النبــي ﷺ مــا يــراد بمجتمعه المســلم من هــذا الحصار الاقتصادي المدمر لثرواته في حياته الجديدة، ورأى ما تدبِّر قريش لحربه، وما تصنع يهود لمؤازرتها في هذه الحرب الساحقة، فماذا كان ينتظــر منه ﷺ أن يصنع في هــذا الموقف أمام أعدائه وأعداء مجتمعــه الذين يريدون القضاء على دعوته والقضاء على مجتمعه بهذا الحصار اللعين؟

نهوض النبي ﷺ بمجتمعه المسلم للوقوف في وجه أعداء الله:

أفــكان يُنتظر منه ﷺ ومن مجتمعه المســلم الذي أقام تركيبه الاجتماعــي علــى أســاس المؤاخــاة التكافليــة أن يُلْقُــوا بأيديهم ويُسْلِموا أنفسهم لهؤلاء الأعداء الذين فقدوا خصائص الإِنسانية، واستبدلوا بها طبائع الوحوش؟

ففيم -إذن- كانت المتاعب واحتمال صنوف البلاء والمحن، ومشـاق الهجـرة، وتكوين مجتمـع جديد في تركيـب اجتماعي تكافليّ؟

إن هذا كان من أجل الدعوة إلى الله، وإعلاء كلمة الحق الإِلَهي، فليمضِ المجتمع المسلم فى مسيرته ليحقق أهدافه بالوقوف أمام أعدائه حتى ينصر الله دينه أو يستشهدوا جميعًا في سبيله.

وبهذا التقدير للموقف نهض رسول الله ﷺ للرّد على العدوان الظالـم الـذي يمثل حلقة فـي سلسـلة مظالم الفجّـار من أحلاس الشـرك وعبيـد الوثنية بلون مـن ألوانه، فهؤلاء الأعـداء إذا كانوا في عدوانهم قـد قطعوا الطريق على المجتمع المسـلم وحصروه في مدينته، وهي مليئة بالأعداء الداخليين من اليهود والمنافقين، فعنـد المجتمع المسـلم ما هـو أنكى وأبلغ في النـكال بهم، ورد عدوانهـم فـي نحورهم، وبتبويـر تجارتهم يمنعهـم متجرهم إلى الشام وهو طريقهم الذي لا طريق لهم سواه.

مكة تسعر نار الحرب بينها وبين المجتمع المسلم:

روى البخاري من حديث عبد الله بن مسـعود رضي الله عنه، من طريق أبي إسحاق السَّبيعي قال: حدثني عمرو بن ميمون أنه سمع عبد الله بن مسـعود رضي الله عنه حدث عن سعد بن معاذ أنه قال: كان أي سـعد بن معاذ سـيّد الأنصار صديقًا لأمية بن خلف، وكان

أمية إذا مرّ بالمدينة نزل على سعد، وكان سعدٌ إذا مرّ بمكة نزل على أمية، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة انطلق سعد معتمرًا فنزل على أمية بمكة، فقال لأمية: انظر لي ساعة خَلْوة لعلّي أن أطوف بالبيت، فخرج به قريبًا من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل، فقال: يا أبا صفوان، من هذا معك؟ فقال: هذا سعد، فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمنًا وقد أويتم الصُّباة، وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالمًا، فقال له سعد: ورفع صوته عليه، أما والله لئن منعتني هذا لأمنعنَّك ما هو أشد عليك منه، طريقك على المدينة، فقال له أمية: لا ترفع صوتك يا سعد على أبي الحكم سيَد أهل الوادي، فقال سعد: دعنا منك يا أمية، فوالله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنهم قاتلوك» قال: بمكة؟ قال: لا أدري، ففزع لذلك أمية فزعًا شديدًا، فلما رجع أمية إلى أهله قال: يا أم صفوان، ألم ترى ما قال لي سعد؟ قالت: وما قال لك؟ قال: زعم أن محمدًا أخبرهم أنهم قاتِلِيّ، فقلت له: بمكة؟ قال: لا أدري، فقال أمية: والله لا أخرج من مكة، فلما كان يوم بدر استنفر أبو جهل الناس، قال: أدركوا عيركم، فكره أمية أن يخرج، فأتاه أبو جهل، فقال: يا أبا صفوان، إنك متى ما يراك الناس قد تخلّفت وأنت سيد أهل الوادي تخلّفوا معك، فلم يزل به أبو جهل حتى

قال : أما إذْ غلبتني فوالله لأشترينَّ أجود بعير بمكة ، ثم قال أمية : يا أم صفوان جهزيني ، فقالت له : يا أبا صفوان ، وقد نسيت ما قال لك أخوك اليثربي ؟ قال : لا ، ما أريد أن أجوز معهم إلا قريبًا ، فلما خرج أمية أخذ لا يترك منزلًا إلا عقل بعيره ، فلم يزل كذلك حتى قتله الله عز وجل ببدر .

في هذا الحديث تصريح من قائد مجتمع الفجور بمكة ، الفاسق أبي جهل ألدّ أعداء رسول الله ﷺ وأشدهم عليه حنقًا ، وأملئهم غيظًا ، وألأمهم حقدًا ، وأشنئهم للمجتمع المسلم بقيام حالة الحرب بين مجتمع الشرك وأَعبُدِ الوثنية بمكة ، وبين المجتمع المسلم بالمدينة المنورة ، وذلك في قول الفاسق أبي جهل لسعد بن معاذ سيّد الأنصار الذي كان يُعَدّ فيهم بمنزلة أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه في المهاجرين ، حين رآه مع أمية ساعيًا إلى الطواف بالبيت : ألا أراك تطوف بمكة آمنًا وقد آويتم محمدًا وأصحابه ، وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم ، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعتَ إلى أهلك سالمًا .

قوة الإيمان تقف أقوى من فجور الكفر في عقر داره وملئه:

فقال له سعد بن معاذ وهو يرفع صوته متعزِّزًا بقوة الإيمان : أما والله لئن منعتني هذا لأمنعنّك ما هو أشد عليك منه ، طريقك

علـى المدينة، ومتجرك إلى الشـام، فوجم لها الفاسـق أبو جهل، ولـم يَحرْ ردًا عليها، وعلم أن المجتمع المسـلم الجديد بالمدينة المنـورة يملـك لحرب الطغاة الفجّـار ألوانًا من الـرد على الغرور الأجوف في بقايا أشـباح الملأ من زعمـاء الكفر، ورءوس الفجور الوثني الحقود.

ولـم يجـد أمية بن خلـف لإنقـاذ الموقف سـوى منافقة غميز الرجوليـة أبـي جهل بقوله لسـعد بن معـاذ وهو يصـرخ في وجه أبـي جهل بما ألقمـه الخزي والخذلان، وردّه إلى شـأنه من الخور والجبن: لا ترفع صوتك يا سعد على أبي الحكم سيِّد أهل الوادي، وهذه المنافقة بين أمية وأبي جهل لون من تقارض الثناء الكذوب.

وقـد قتل الله أمية وأبا جهل فيمن قتل من زعماء الكفر والفجور فـي يوم بدر العظمى شـرّ قتلة، كان فيها خزي أعـداء الله، وأعداء رسـوله، وأعداء المجتمع المسـلم، الذي نصره الله في هذه الوقعة نصـرًا كان له في مجتمعات الكفـر دويّ الإعصار المدمدم بما ملأ بـه الآفاق من رهبة ورعب، دخل في قلب كل كافر سـمع دمدمته، حتى مادت الأرض تحت أقدام كل متربِّص بالدعوة إلى الله، متسمِّع لأنبائهـا، وهـو أول نصـر للمجتمع المسـلم أطـاح رءوس زعماء الوثنيـة البليدة وشـرّد مَنْ خَلْفهم مـن اليهـود والمنافقين، وفتح الطريق أمام الدعوة إلى الله تمضي قدمًا إلى الآفاق مشرِّقة هادية.

والظاهر من مجموع الروايات وفحوى رواية البخاري أن حادثة سعد بن معاذ مع أمية وأبي جهل بمكة كانت قبل أن ينهض النبي ﷺ ليتلقّى عير قريش حين مروره إلى الشام وإيابه منها، كما أن الظاهر أن هذه الحادثة هي مع أمثالها التي حركت النبي ﷺ للنهوض إلى التعرض لتجارة قريش تحقيقًا لقول سعد لأبي جهل: لئن منعتني هذا لأمنعنَّك ما هو أشد عليك، طريقك على المدينة؛ لأن سعدًا عاد إلى المدينة المنورة، ولا بد أن يكون قد حدّث النبي ﷺ بما كان بينه وبين أمية وأبي جهل، فابتدر النبي ﷺ الأمر ونهض للتعرض لعير قريش وهي صاعدة إلى الشام، فلما فاتته تعرّض لها وهي آيبة إلى مكة، ويشير الحديث إلى أن حادثة سعد كانت مما حرّك النبي ﷺ إلى النهوض لتعرّضه لعير قريش.

فتنة أطفأها الله بحكمة السياسة النبوية:

ومن أظهر الدلائل على قيام حالة الحرب بين مجتمع الشرك والوثنية في مكة والمجتمع المسلم في المدينة المنورة ما رواه ابن مردويه بإسناد صحيح كما قال ابن حجر في الفتح قال: كتب كفار قريش إلى عبد الله بن أبيّ وغيره ممن يعبد الأوثان قبل بدر يهددونهم بإيوائهم النبي ﷺ وأصحابه ويتوعدونهم أن يغزوهم بجميع العرب، فهمّ ابن أبي ومن معه بقتال المسلمين، فأتاهم النبي ﷺ فقال: «ما كادكم أحدٌ بمثل ما كادتْكم قريشٌ، يريدون

أن يُلْقُوا بأسكم بينكم» فلما سمعوا ذلك عرفوا الحق فتفرقوا.

وفي هذا الحديث لمحة سياسية تدل على ما حبى الله به رسوله محمدًا ﷺ من الحكمة النافذة إلى أغوار النفوس البشرية، ومن التدبير المحكم في البديهة والتأمل على سواء؛ ذلك أنه ﷺ أتى ابن أبيّ ومن معه من عبدة الأوثان، وهم أعداء المجتمع المسلم، من قبل قوميتهم التي تربطهم بالمسلمين من الأنصار، وأفهمهم أن قريشًا تريد أن يقتل بعضكم بعضًا، وتؤرّث بينكم العداوة والبغضاء، لتلقي بأسكم بينكم، فلمَّا تأمّلوا قوله ﷺ ثابوا إلى رشدهم وعرفوا الحق فتفرَّقوا.

هذه براهين قاطعة تدل على أن موقف أعداء المجتمع المسلم من هذا المجتمع كان موقف حرب شعواء مسعورة كما دلّ عليه كتاب قريش إلى ابن أبيّ ومن معه من عبدة الأوثان، إلى جانب ما كان منهم إليهم من ظلم صارخ وعتوٍّ فاجر وما أنزلوه بطلائع هذا المجتمع من أفانين البلايا والمحن، وما استحوذوا عليه من أموالهم بأحط طرائق النهب والسلب والاغتصاب، وأدخلوها في أموالهم وثرواتهم لإِرباء تجاراتهم التي يخرجون بها في عيرهم وقوافلهم إلى الشام ذهابًا، ويئوبون بها إلى مكة بعد أن يتخموا من الأرباح الظالمة، مارِّين بها على المدينة عاصمة المجتمع المسلم ومستقره التي اتخذها حصنه المنيع، وقلعته التي لا ترام.

فهل إذا نهض النبي ﷺ لحماية مجتمعه ودعوته ليقف أمام الظلم وفجور الكفر يكون ﷺ محاربًا لحرية التجارة وحرية العيش؟

أفإن نهض النبي ﷺ ليمنع هؤلاء الظلمة من فجّار الكفر، وطغاة الوثنية المنحطة من أن يدوسوا على حرمة مدينته، وكرامة مجتمعه المسلم، ويستخلص من أيديهم أموال أصحابه من المهاجرين الأولين التي اغتصبها ملأ الفجور من مشركي قريش بأحط طرائق النهب والسلب، وينتزع منهم ما يتعزّزون به من ثروات محرمة يحاربون بها، يقول أعداء الإسلام إرجافًا برسول الله ﷺ ومجتمعه المسلم: إن محمدًا ﷺ وأصحابه يشنّون حربًا هجومية على الآمنين ليُكرهوا الناس حتى يؤمنوا بدعوته، ويندمجوا في مجتمعه، بدخولهم في دينه؟ وإنهم يقطعون طريق التجارة ويأخذون ما في أيدي أصحابها من أموال؟

أفإن نهض رسول الله ﷺ ليستعمل حقّه الذي أعطته إياه قوانين السماء والأرض التي تحدد علاقات المحاربين من كل جنس ودين وأمة وجيل، يقول أعداء المجتمع المسلم متباكين على السلام، نادبين حظ البشرية: إن محمدًا وأصحابه يقطعون الطريق على التجارات غادية ورائحة، ويعطِّلون سبل الحياة فيما يتعايش به الناس، ويتناسى هؤلاء الأعداء فجور إخوانهم أعداء الله وأعداء دينه في مكة بإنزال أفانين البلاء والمحن والتعذيب بالمؤمنين بدعوة

محمد ﷺ، ويتناسـون دسـاتير الدول، وقوانين الأمم في الحرب في معاملة المحارب بالمثل في ردّ اعتدائه عليه، ويتناسـون أن من حق كل محارب اعْتُدي عليه ظُلْمًا أن يسحق عدوه بما يستطيع من قوة ما دامت الحرب قائمة لم تضع أوزارها؟

من العدل معاملة المحارب بمثل معاملته:

إن معاملة كل محارب بمثل سلوكه في الحرب هو أقل درجات العدل في القوانين المنظمة للعلاقات بين المتحاربين؛ لأن في هذه المعاملة بالمثل تحذيرًا للطغاة، وإنذارًا للظالمين في صور إيجابية عمليـة تعرِّفهم أن الحروب لا ضوابط لها، وكثيرًا ما يُفلت الزمام من أيدي القادة، وتُنسـى القوانين، وتلعب المغالبة دورًا قاسـيًا لا تحكمـه القوانين، وقد يشـتد أوار القتال فيأكل الأخضر واليابس من الطرفين، والمجتمعات البشـرية (تتطور) في سلمها وحربها إلى ما هو أسوأ وأفحش في حضارتها المادية المدمرة.

رد الاعتداء ومقاومة الظلم ضرورة حيوية يتطلبها إصلاح الحياة:

فلـو لم يردّ الاعتداءُ بمثله لكانت العواقب وخيمة على الحياة بمن فيها وما فيها، فالذين يريدون من المجتمع المسـلم أن يقف مكتـوف اليدين أمام جرائم أعدائه، فلا يـردّ عليها بمثلها -وهذا أدنـى العـدل الاجتماعي- يريدون من وراء ذلك أن تتعطل مسـيرة الدعـوة إلى الله، والدفاع عن الحـق الإِلَهي، وإعلاء كلمته لتطهير

الإنسانية من أوضار الشرك ورجس الوثنية، وفجور الإلحاد، تسترًا بأغطيــة الحرية المنطلقة انطلاق الوحشــية الحيوانية في الغابات والســهوب لا تحكمهــا إلا الغرائــز الثائرة المجنونــة، والرغائب الشــهوية الفاجرة المفتونة، وعندئذ تتحول الحياة الإنســانية إلى قطعان من أشباح البشرية تقف على شفير الهاوية انتظارًا لقاصف من الريح الجنوني يدفعها إلى مقرها، لتلقى نهايتها البائســة التي جرّها إليها الإلحاد المتحرر، أو التحرر الملحد ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (هود: ١١٧).

وفــي ضمن هــذه العموميات تظهر صــورة المجتمع المســلم فــي موقفه مع أعدائه المعتدين عليــه بزعامة طغاة الوثنية في مكة ليعرف الطغاة أن المجتمع المســلم في يومه بعد الهجرة غيره في أمســه، وهو بمكة مضطهد معذب مســتضعف؛ لأنه كان مجتمعًا ناشئًا قليل العدد، وضعيف العدّة، لا يملك شيئًا من وسائل الدفاع عن نفسه، وكان مأمورًا بالصبر والصفح والعفو عن الإساءات التي توجه إليه، وينزلها به الطغاة الظالمون من فجار الشــرك والوثنية، ولكنه في يومه بعد الهجرة أصبح مجتمعًا قويًا في كثرته العددية، ونمو هذه الكثرة بصورة مذهلة لأعدائه، وقويًا بعدته الماديّة التي يملــك بها الــردّ على اعتــداء أعدائه، بل يملك بها أن يســحقهم ســحقًا بســبب ما قام عليه تركيبــه الاجتماعي الجديــد، وبنيانه

الإيمانـي المؤســس علـى المؤاخـاة التكافليـة التي كانـت قوته الأساسية في وقائعه الحربية.

فالمجتمع المســلم في يومه وتركيبــه الجديد يملك من القوة المادية ما يســتطيع به تحطيم تجمّعـات أعدائه الظلمة، وقد كان ممنوعًا من الردِّ على الاعتداء فأُذن له فيه، فهو ممكّن من الوقوف أمام الطغاة موقفًا يكبح جماح غرورهم، وهم مصممون على حربه، ولا يردّهــم عن عزيمتهم الطاغية إلا أن يعالنهم بمثل ما عالنوه به مــن الحرب، وهذا الذي كان منه ﷺ في خرجاته المنذرة متعرضًا لعيرهم التي تحمل تجارتهم غادية رائحة، وهي مارّة بالمدينة إنما كان إشــعارًا لهم بأن المجتمع المسلم سيرد الاعتداء بمثله، وهو علــى أتم الاســتعداد للقتــال إذا أرادوا قتــالاً ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج: ٤٠).

❀ ❀ ❀

الفهرس